تركه. معطّل الفكر والإرادة واللسان وتحت وطأة إحساسٍ طاغٍ بالمهانة وشعور عارم بالعطب. لم يجرؤ عى طلب الشاي. ولكنه ودّ من أعماقه لو يعطف عليه ويأتيه به من تلقاء نفسه. وإذ يفعل سيطلب منه الثاني والثالث. ولكن العم خدر ظل أمام الموقد... يحرك النار. ملقياً في إهمال تام. أشعل سيجارة وراح يرقب من خلال زجاج المقهى المطر المتساقط في الخارج كالشلال. لو يخف بعض الشيء. "آه... لقد... تسرعت... تسرعت كثيراً. ما كان ينبغي أن أترك البيت" ولكن قد جرى كل شيء بسرعة أذهلته. لم يكن معها قادراً على التفكير ناهيك عن التفكير السليم. لقد تصرف كالغائب عن الوعي.

دخل المقهى شاب في مثل عمره. يغطي رأسه بجريدة. إتخذ مكانه أمامه غير بعيد عنه.

خصلات شعره الفاحم المسترسل. تغطي رقبته. نفض الجريدة بضع مرات. ثم بسطها أمامه.

مال بجسمه الى الأمام ومدّ رأسه وقرأ عنواناً بخط واضح "مقاومة الشعب اللبناني لقوات الغزو تتعاظم... وقبلما يقرأ تفاصيل الخبر. قلب الشاب الجريدة الى صفحة الرياضة. فتراجع الى مكانه. مقرراً أن يستعير الجريدة من الشاب بعدما ينتهي منها.

صاحب المقهى لايزال أمام موقدة. يحرك نيرانه ويلقمها المزيد من الحطب اليابس... وقطع الفحم الصغيرة غير ملتفت نحوه بالمرة. خطف حقيبته. القى معطفه على عاتقه وسحق بقايا سيجارته تحت قدمه. وخرج أمام المقهى توقف لم يكن المطر قد إنقطع... ولكنه خف بعض الشيء وخيوط مشعة من الشمس كانت تتخلل الغيوم هنا وهناك... وتهرئها. إرتدى المعطف... أحكم أزراره... وسار. ولم يكد يمشي بضع خطوات، حتى إنعطف نحو اليسار وكان البيت الذي تركه قبل هنيهه، بيته هو، بيته هم، قبالته مغسولاً بالمطر الربيعي... وأحجاره الكلسية قد باتت... مشعة نظيفة... تلتمع فوقها قطرات الماء العالقة... فأخذ يغذ نحوه الخطى.

بعقوبة ١٩٨٨

الكلب العجوز مغمض العينين

كان الكلب العجوز جائعاً جداً، ومتعباً الى حدٍّ لايصدَّق. فقد أنهكه الجري المتواصل واللهاث المضني. طيلة الأيام السبعة... الماضية. في البحث، دون طائل، عما يسد رمقة. فأقعى أمام الباب، لعل سيدته أو سيدّه أو أحد المارة، يشفق عليه ويمنحه ما يأكل.

وإذ طال مكوثه على تلك الحال وشرعت مؤخرته العجفاء توجعه. وحرارة الشمس التي إشتدت. مع إقتراب الظهيرة وقيضها التموزي، تزعجه. تمطى متثائباً وإنسحب الى الوراء. حيث الظل المنحسر الذي يلقيه جدار البيت الحجري الواطيء، على ساحة صغيرة. فالتصق بالباب الخشبي الموارب... و... تمدد... يائساً.

بين آونة وأخرى، راح يهزّ ذيله الوبري بوهن شديد، يطرد الذباب الذي يتجمع على مؤخرته ويقرصها، بلا اشفاق، قرصات قاسية، أو يحرك رأسه ذات اليمين واليسار، متجنباً الذباب الذي ما يكاد يطير حيث يتجمع حتى يتكوم ثانية على بوزه يمتص اللعاب السائل من شدقيه المفتوحين. وعلى منخرية، يخوض بأرجله المشوكة، في المخاط الدبق الذي يلتمع بين فتحتي أنفه، يفسد عليه قيلولته التي يمنّي نفسه بها. ملاذاً أخيراً ووحيداً يمكن أن ينسيه، ولو لبعض الوقت، الجوع الذي ينهشه من الداخل بشراسة.

لمح، عبر نظراته المتكسرة، سيده من بعيد... عائداً الى البيت خالي الوفاض. لم يحفل، ولم ينهض لإستقباله والتمسح به والتعبير عن حبّه له. مثلما إعتاد أن يفعل في الأيام الخوالي، لا لإستهانته به. فذلك أمر لم يدر بخلده قط. بحكم العشرة الطويلة التي تربط بينهما، والتي إتسمت دائماً بالإحترام والإجلال المتبادلين. ولكنه في اللحظة التي إقترب منه سيده، كان هو قد نجح، بعد صراعه المرير، مع الشمس والذباب، في إغماض عينيه... وإقتناص هنيهة

غفوة مفضية الى الولوج في دنيا الأحلام السعيد. حيث الشبع والبرودة. فلم ينتبه له ولم يشعر به، إلا وهو ينغزه... ببوز حذائه الذي تهرأ وبرز منه أبهامه، بظفره المتقرن كعظمة خالية من اللحم. حادة. مدببة. ونبره بصوت متهدج ينضح بالغضب:

– رُحْ... رُحْ... إبحث عمَّن يطعمك... نحن لم يعد لدينا ما نأكل... ومن لايجد ما يأكله هو... لايقدم شيئاً لغيره... هيا... هيا... تحرك...

إستاء الكلب العجوز من سيده كثيراً... لا... لأنه ينهره ويطرده... بهذا الشكل المذلّ. فهذه حالة قد باتت وبالرغم من كل المودة القائمة بينهما، والتي لايسمح لنفسه قط بالشك في عمقها. تتكرر منذ فترة غير قصيرة بصورة يومية. وأحياناً تتكرر في اليوم الواحد أكثر من مرة واحدة. غير مقتنع تماماً... بأن سيدّه لايعني ما يقول. فهو الآخر، مثله، يقدّر العشرة ويحترمها... ولا يمكن أن يفرط بها بسهولة... بسبب ما اصابة هذه الأيام من ضيق... بيد انه قد إستاء من سيده لأنه أخرجه من غفوته اللذيذة وأحبط الآمال التي عقدها عليها... ولم يقدّر الجهد الجهيد الذي بذله في سببها ولا ذلك الكفاح العنيد الذي خاضة، ضد الذباب والشمس... حتى إصطادها.

كتم استياءه وإكتفى بهزٍّ ذيله النحيف. بطريقة حاول أن تكون حركته بعيدة كل البعد عن مشاعره الحقيقية الدفينة. بل وتعمد أن يجعلها تبدو ودوداً... لاأثر للإستياء أو الامتعاض فيها. ولا رائحة للتذمر أو اللوم تفوح منها... محمّلاً إيّاها كل ما بوسعه أن يؤكد لسيده، بأنه وبالرغم من كل شيء... متفهم أحواله، هذه الأيام... ولا يزال ذلك الوفي والمخلص الذي عرفه وخبره جيداً، لزمن طويل...

في النهاية، فكّر الكلب العجوز، ليس له في هذه الدنيا... الواسعة الجرداء، الخالية من عظمة عارية من الجلد واللحم. غير سيده، وبيت سيده، يقيانه أهوال التشرد وإعتداءات الكلاب والناس. وينقذه من أذى روح الشر، المندلقة، هذه الأيام... دون ان يردعها رادع... أو يخفف من غلوائها... أحد.

وإذا كنت تخاصم سيدك، خاطب الكلب العجوز نفسه، لكل صغيرة وكبيرة. أو تحاسبه على كل نزوة من نزواته المتقلبة المتغيرة، على الدوام... ستجد

نفسك. أيها العجوز المهجور، ملقى في الشارع القائظ. لاظل تأوي إليه... ولا مخلوق يمّن عليك. فكن عاقلاً... وحليماً... وأكثر منه صبراً وتحملاً... هو المتوتر المستفز... دائماً.

عند هذه القناعة التي شحن بها نفسه، نكس رأسه... وأطلق نُباحاً متقطعاً... أشبه بمواء قطة ذليلة... ثم لاعب ذيله ثانية. ودفن نظراته الكسيرة في ظله الساقط أمامه. حريصاً، أشد مايكون الحرص، أن لايدعها تتقاطع أو تلتقي مع نظرات سيده التي حدس... بفعل تجربته وخبرته الطويلة معه. في أمثال هذه الحالات... إنها الآن تتقد غضباً...

أخذ يتراجع الى الوراء... فاسحاً الطريق أمام سيدّه ليدخل الدار، دون أن يحتك به. بل وسمح لنفسه، ربما بدافع الفضول لمعرفة أسباب غضب سيده عليه... أو بقصد طلب العفو والمغفرة لسوء سلوكه، غير المتعمد... إزاءه... أو... أو... مؤمِّلاً... أن يكون سيدّه، قد عاد، على خلاف عادته، هذه الأيام، بما يخرس جوعه الصارخ... مع إنه قد أيقن اليقين كله بأنه قد عاد... بلا شيء... خفيفاً مثلما خرج من البيت مع إشراقه الفجر. ولكن الأمل في الحصول على مايثلم سكاكين الجوع التي تقطع أحشاءه... لم يكن يفارق. أو... أو... لكل تلك الأسباب مجتمعة... ولأسباب أخرى... لم يقف عندها طويلاً... أسرع يتبع سيده الى الداخل... عبر الفتحة التي تركها في الباب... دون أن يرفع رأسه.

شاهد سيدته. وهي عجوز مثله. كثيراً ما ألقت أمامه بقطع عظام هشة مليئة بالنخاع... مكسوة، معظم الأحيان، بقدر غير قليل من اللحم المسلوق... وهي تقول "لقد تساقطت أسناني... لم تعد لدي أسنان قادرة على طحنها...خذها... خذها... أيها الصديق العجوز... كلها بدلاً عني..." آه... سيدة عظيمة... كريمة... طيبة... في منتهى الطيبة والكرم... ولكنها هي الأخرى، أخذت، هذه الأيام. تبخل عليه وتجوعه... ترى ماذا دهاها... لماذا تغيرت الى هذا الحد؟

رأها تقبل نحو سيده وسيدها... تحمل فوق أقدامها العارية هيكلها الهزيل المتداعي... المنطوي على نفسه... وتسأله بصوت خافت، لايكاد يسمع:

– ها؟ لاعمل؟ اليوم أيضاً؟

أجاب بإنكسار شديد... يثير الشفقة والرثاء... أو بالأحرى كرر سؤالها... بإقتضاب مشوب بنبرة أسى:

- لاعمل اليوم أيضاً.

إحتدّت سيدته.

عرف ذلك من الكفّ المعروقة التي إرتفعت بجلدها الأبيض الرقيق العاجز عن إخفاء عظامها، لتغطي فاها وتمنع الرذاذ... المتطاير من بين شقوق وفتحات أسنانها المتساقطة ويصيب وجه سيدها... فيلقم نار غضبه المتأججة... حطباً يابساً:

- ولكنه اليوم السابع ونحن بلا أكل... اليوم السابع يا رجل.

إحتد هو الآخر... وقال بغضب غير موجه إليها إذ لم يتطلع نحوها:

- وسيأتي اليوم السبعون أيضاً. ماذا أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل.

وإنكمشت السيدة العجوز على نفسها، فوق إنكمشاها الظاهر، وشرعت تتراجع... بإنخذال واضح... وتردد بما يشبه الإعتذار:

- حسناً... حسناً لاتغضب... فقط لاتغضب.

أشفق عليها... سيده وسيدها... وراح يشرح لها الحال. دون أن تطلب هي أي شرح... بنبرة يمتزج فيها الحزن والألم:

- وقفت في مسطر العمال... تحت نصب البطولة والإنتصار حيث يقضى العمال بإنتظار العمل... حتى أخذت الشمس... تشويني شوياً. إنفضَّ من حولي الجميع... مَنْ حالفه الحظ وقع عليه إختيار المقاولين وأصحاب العمل. ومن خالفه عاد الى بيته خائباً. وحدي لبدتُ هناك... أكثر من خمس ساعات... دون أن يلتفت اليّ أحد... ناوليني قدح ماء.

أضاف، بعد هنيهة، وهو يعيد إليها إناء الماء، ويمسح باليد الأخرى قطرات الماء العالقة بشعرات شاربة البيضاء الكثّة المتهدلة:

- لا أحد يريدني. كلهم يبحثون عن الشباب والفتيان وحتى الصبيان الصغار... وأنا قد تجاوزت هذه المرحلة منذ نصف قرن...

تألمت سيدته العجوز... لحاله... ولم تشأ أن تتوغل في جرحه أبعد. فكتمت

ألمها... خزنته في نفسها، فوق خزين آلامها... هربت الى الغرفة الوحيدة في البيت. بينما راح سيده... يعصر بطنه...

- آخ... بطني...

لقد هيّجت رشفات الماء التي عبّها بلا تروّي آلاماً في بطنه. عرف الكلب العجوز ذلك... إذ رآه يتلوّى ويصرخ بصوت مخنوق خجول... بطني... بطني... لامه الكلب، في دخيلة نفسه... ما كان ينبغي أن تشرب ذلك القدر من الماء... على الجوع...

طاطأ رأسه وراح، بكسل وخمول، يتمسح به... مواسياً...

خرجت سيدته من الغرفة الوحيدة التي دخلتها... حاملة سلّة محشوة... منتفخة:

- ماهذا؟ ماذا تفعلين؟

سألها برقة... حلت محل الغضب الذي كان يمور به. ربما بسبب الألم الذي لايزال يعاني منه والذي جعله رقيقاً الى حدما:

- أبيع ماتبقى من ملابسنا. لعلها تعود علينا... بما يسدّ الرمق.

أجابت وهي تحتضن "صرّة" الملابس التي حسبها الكلب العجوز. لأول وهلّة... سلّة... منتفخة... عبر عينيه الكابيتين.

- وهل تبقى في البيت... شيء صالح للبيع...؟

قالت وهي تهرب من مواجهته:

- ملابس الشتاء... لسنا بحاجة إليها الآن؟

- وحين... يحلّ الشتاء... هل نواجهه عراة؟

- من يضمن بقاءنا حتى الشتاء... ياعيني؟

أمّن على قولها:

- صدقت. من بوسعه أن يحيا بلا طعام، حتى يرى الشتاء؟؟

خرجت محنية الظهر. تحت ثقل سنواتها الثمانين. وهمها العجوز... الذي تئنُّ تحته أكثر من سنوات عمرها.

داست دون أن تدري، على ذيل الكلب، المقرفص قرب الباب. ندّت منه

صرخة ضعيفة، على شكل عواء قصير، توجهت نحوه... بقلق، معتذرة:

– أوه... أنت!!... آه... عفواً... لم أرك.

وأضافت بألم: يبدو أن عيني، أيضاً، لم تعودا تنفعان.

غادرت بسرعة، دون أن تغلق الباب، ودون أن تسمع العواء الآخر الذي صدر عن الكلب العجوز، بنغمة مختلفة. كأنه يقول لها: لابأس... لابأس... بوسعي أن أتفهم... حالك!

كان سيده لايزال يرغي ويزبد، ويغلي من الداخل، كالمرجل على نيران آلام وأوجاع، غير مرئية، ويتلوى:

– بطني... آخ... بطني!

ماذا بوسعي أن أفعل من أجله؟ كيف أساعده، وأخفف عنه الأمة.

تساءل الكلب بينه وبين نفسه متوجعاً من الحال التي يرى سيده يعاني منها... لاشيء... أقرّ بأسف شديد... وتمدد في مكانه، منتظراً سيدته التي قد تعود، ليس كما عاد سيده، فارغ اليدين.

– هذا الزمن القذر... قد بات زمن كلاب... الزمن، زمن كلاب.

صرخ إثر نوبة جديدة من الآلام، شاكياً بمرارة... لا... لاأحد. منقلباً على وجهه.

دبّت في الكلب العجوز الذي كان لشدة خموله وتداعي أعضاء جسمه، يوشك أن يذهب فريسة سائغة للذباب والجوع. قوة غريبة... فإنتصب واقفاً على قوائمه الأربع، وفي لمح البصر أطلقها للريح... يسابقها ولا يلوى على شيء... منتشياً بفرح خفى. يطير به طيراناً، ويشحنه بحيوية تبعث الحياة في أيام الشباب والشبع. لم يتوقف إلا خارج المدينة. عند كهف مهجور، ينزوي فيه كل ظهيرة جماعته، وهم* يتضورون جوعاً ويجترّون بصمت أحلاماً تصنعها خيالاتهم المجنحه، تحلق بهم في دنيا الشبع الذي أصبح خارجها مستحيل الوصول إليه... بل وحتى الإقتراب منه.

لقيهم، كما إعتاد أن يلقاهم، كلما دفعته الحاجة إليهم، أملاً في العثور

* هنا وفي مواضع أخرى إستخدامٌ خاص لبعض الضمائر تقتضيه الضرورة الفنية.

على عظمة زائدة، أو عصيّة على أسنانهم... من غير أن يحظى بشيء... ومن غير أن يتعظ هو من فشله المتكرر. كانوا متهالكين على أنفسهم، وعلى بعضهم البعض... بلاحول ولا قوة وفي خور شديد... لايقوي أي منهم على الوقوف على قوائمه... هرّ الكلب العجوز، صارخاً بهم:

– هلمّوا، أولادي، هلمّوا...

لم يلتفت أي منهم نحوه... ولا أعاره أيّ إهتمام... فقد تبادر الى أذهانهم جميعاً، أن الكلب العجوز... قد جاء للغرض نفسه الذي يأتي كل مرة من أجله... وسيعود خائباً بالنتيجة نفسها التي يعود بها كل مرة من تلقاء نفسه، دون أن يكلّف واحد منهم عناء الردّ عليه سلباً أو ايجاباً. ظلوا على حالهم... راقدين لايحركون ساكناً... كمجموعة موتى لفظتهم قبورهم.

هرّ الكلب العجوز... ثانية وصرخ فيهم بنبرة أشدّ حدّة:

– لقد... جئتكم. ياجماعة، بنبأ مثير... بخبرٍ سار... سعيداً جداً...

مرة أخرى عانق الفشل محاولته في إثارة هذه الكائنات المرتخية المتساقطة على الأرض، بلاحياة. زعق الكلب العجوز:

– ياكلاب اسمعوني... لقد حلّ... زمننا.

– زمننا؟

تساءلت الكلاب كلها، بصوت واحد. ثم تعددت الأصوات بقدر تعدد مصادرها وإختلفت نبراتها بإختلاف أصحابها، إذ راح كل واحد منهم يسأل من موضعه، بلهفة متصاعدة:

– أحقّ ما تقول؟

– هل حلّ زمننا فعلاً...؟

– زمن الكلاب... أيها الكلب العجوز...؟

– زمن الكلاب... أيها الأعزاء.

أكّد الكلب العجوز بنبرة يقينة لاتدع أي مجالٍ للشك... متذكراً ومقلداً سيده الذي أحال ببراعة نالت أعجابه سؤال سيدته الى جواب جازم: وطاب له إثر الذهول الذي خيّم على الجميع... أن يكرر جوابه... ويزيده تأكيداً:

- بالضبط... زمن الكلاب... زمننا نحن...

إستقامت الرؤوس المرتخية، وإعتدلت الأعناق الملتوية. وإنتصبت الهياكل المتداعية... ولولا أن الأجساد كانت متيبّسة إمتصّ الجوع مياهها... لسال اللعاب أيضاً، من الأشداق التي إتسعت الى آخرها.

تساءل كبيرهم، وهو كلب أسود ضخم. كثير الشكوك، يمتاز على أقرانه بجوعه الدائم الذي لايعرف الشبع... مثلما يمتاز بشراسته ودمويته... مما جعل الجميع يهابونه... ويسلّمونه قيادهم طائعين...

- أهي خديعة أخرى أيها الكلب العجوز... خديعة تكلفنا... المزيد من الجهد... اللامجدي...
- لا... لا... أبداً... أبداً.

أسرع الكلب العجوز ينفي شكوك الكلب الأسود. ويوكد أقواله المستندة على أقوال سيده التي لايرقى إليها الشك في رأيه:

- إنها الحقيقة... الحقيقة التي لاتقبل الجدل. وقد قالها سيدي بنفسه. وسيدي لايكذب... أبداً... فأسرعوا... أسرعوا ولا تهدروا شيئاً من الوقت. نندم عليه كثيراً.

إندفعت الكلاب الجائعة، نحو المدينة، يتقدمها الكلب الأسود. الضخم... بينما راح الكلب العجوز يلهث. وهو يحاول اللحاق بجماعته التي باتت المسافة بينه وبينها... تتسع... وتتسع...

توقفت الكلاب على مشارف المدينة. تلتقط أنفاسها. وتستعد لإقتحامها. رفعت مناخيرها تعّب الهواء الهابّ من المدينة... تبحث بين طياته عن الرائحة أو الروائح التي تفتقدها وتنشدها منذ زمن طويل. وإذ لم تعثر عليها... تسلل إليهم خيط من الشك... وراحت تتبادل نظرات الريبة فيما بينها. ولكنها وقبلما تتخذ قرارها، آثرت الإنتظار والتريث... ريثما يصل الكلب العجوز. الذي ماكاد يبلغ المكان، مبللاً، منهاراً... حتى إستشف كل شيء من النظرات النارية المصوبة تجاهه... التي لاتحمل في طياتها سوى معنى واحد: وهو إتهام موّحد، صريح، بالكذب والخداع.

- سيدي لايكذب أبداً... سيدي لم يكذب قطّ.

لاذ بسيِّده مرةً أخرى... حصناً يقية الشرّ المتوقد في العيون.

- لندخل المدينة.

لم ينتظر جوابهم... ولا قرارهم... فقد كان بحاجة شديدة الى الإبتعاد عنهم... الى الفرار منهم... بصورة وقتية حسب... فهو واثق. إنه قد آن وقت الفرار... سيلحقون به... ولو كان في السماء... السابعة أو تحت طبقة الأرض السابعة...

هذه المرة، لم تدعه الكلاب، يتأخر عن الركب... وضعته في المقدمة. وأخذت تعدو خلفه... وتحيط به يميناً ويساراً... وعيونها... ملتصقة به... لاتفارقه ولا تغفل عنه.

دخلوا المدينة في لمحة عين... فقد وجدوا أنفسهم خِفافاً طائرين على جناح الجوع... هرعوا الى أول مطعم لاح لهم... فلم يجدوا غيرَ مقاعد فارغة... وموائد خالية... إقتحموا المطبخ... فلم تكن ثمة غير نيران منطفئة... وأدوات وقدور وصحون، نظيفة، لاتقف عليها. ذبابة واحدة... ولا تطنُّ حولها.

داهموا... مطعماً آخر... وآخر... وثالثاً ورابعاً... وعاشراً... فلم تكن حال أيّ منها... بأفضل من غيرها...

تمكن منهم التعب، وإشتد بهم الجوع الذي هاج. توقفوا لاهثين منقطعي الأنفاس. نظراتهم نيران متأججة مصوبّة الى الكلب العجوز. الذي أخذ يرتعد من الخوف... ولا يجرؤ على فتح فيه بكلمة واحدة. فقد أخرس الرعب الذي تنسجه النظرات المصبوبة عليه لسانه... وعطّل كل قدرة عنده على التفكير... بتدبير خطة... للخلاص...

في إستسلام كامل للمصير الذي يحدودنه له... أطرق ساهماً... منتظراً اللحظات... أو بالأحرى اللحظة الخاطفة التي تلاشيه. في عجز تام. عن أية قدرة... لتجنبها...

ولكن...

وفجأة... قدح ذهنه الخائف المرتعد... بفكرة...

لم يتمهّل للتثبت من صوابها... والتأكد من صلاحيتها أو مدى نجاحها أو فشلها... وإنما إنطلق على الفور... لتنفيذها.

تبعته الكلاب الأخرى. بدوافع شتى... أقواها... وقاسمها المشترك الأعظم، أن لاتدع الكلب العجوز، بعد تلك الخديعة... يفلت من أنيابها.

ظل الكلب العجوز... يجري... وهم يجرون وراءه... ولم يتوقف، ولم يتوقفوا بعده، إلاّ حين بلغ مزبلة المدينة... هجم على أكوام... الزبالة والفضلات المتفسخة، يهدم تلولها الصغيرة، المبثوثة هنا وهناك... ينبش فيها بيديه ورجليه وبوزه... والآخرون وراءه يفعلون فعله... يمزقون أحشاء المزبلة في كل موضع. ينشرون الروائح العطنه... المتعفنة... بين طيات الهواء وتلافيفه... فتحملها الرياح الهابّة... لتخلق فضاءً شاسعاً من النتانة. بيد أنهم... لم يعثروا... إلاّ على عظام مهروسة... سحقتها الأسنان البشرية... ومضغتها... ثم لفظتها الأفواه، بعدما إمتصّت نخاعها... وأخرى صلبة قوية... منزوعة اللحم والجلد... عصت على الأسنان الآدمية؛ وهي تتصدى لأسنانهم وأنيابهم سكاكين حادة... تجرّح شفاههم... تكسرّ قواطعهم... فإمتلأت أفواههم بالدم... وإمتلأت نفوسهم بالحقد... على البشر الذي راح ينافس الكلاب... ويسابقهم الى أكلاتهم. وفقد بعضهم صوابه... لمذاق الدم المجّ في حلوقهم... ولمرآه القاني... على شفاه الآخرين... فإشتد هيجانهم. ولكنهم... تحلّوا بالصبر مرغمين، فالكلب الأسود الضخم... لم يقرر شيئاً بعد... فغدوا... مراجل... مغلقة... تغلي من الداخل... تحلقوا حول الكلب العجوز. ضربوا حوله سياجاً... متماسكاً... يعجز الفأر من النفاذ خلاله... ثم أخذ السياج... فوق تماسكه يتماسك أكثر وفوق ضيقه... يضيق أكثر. وكل واحد فيه... يهتم بالإنقضاض عليه... وإفتراسه قبل صاحبه.

أحسَّ بالخطر الأكيد يداهمه... يحيط به من كل صوب... ويحدق به من كل حدب. إنكمش الكلب العجوز، الذي تضاعفت سنوات شيخوخته فجأة، على نفسه. جمد في مكانه، مسلوب الارادة... متيبّس العروق. عيناه فقط... راحتا تتحركان في حركة زئبقية. تبحثان عن منفذ. عن مهرب. عن فتحة صغيرة في هذا السياج الغريب، المتحرك الذي لايتوقف عن الحركة والتقدم نحوه والإطباق عليه. فأقعى في مكانه يائساً مستسلماً لحكم القضاء وقدره... المتمثل في حكم الكلب الأسود وقراره الأخير...

– أتقدِّر خطورة ما فعلت بنا أيها الكلب العجوز؟

هرّ الكلب الأسود الضخم. لم يحر الكلب العجوز جواباً. فقد أدرك أن أي كلام يقوله يزيد الموقف خراباً. ويصبّ على نار الغضب المتأججة المزيد من الزيت.

– أجَّجتَ شهيتنا الى اللحم.

تولّى الكلب الأسود الضخم الشرس، الإجابة على سؤاله بنفسه بعد ما طال إنتظاره لها من الكلب العجوز...

– لقد هيّجت البركان الخامد في أحشائنا... منذ أيام.

قال آخر...

– ولن نرضى بغير اللحم... بديلاً...

قالها أكثر من واحد بتصميم وعناد.

وفي دفاع مستميت يائس، راح الكلب العجوز، يتلعثم:

– هـ... هـ... هو... هو... لا... أنا... ليس... أنا...

صرخ الكلب الأسود الشرس، الجائع على الدوام، بفم ممتليء بالدم. ورذاذ متطاير... من بين شقوق وفتحات أسنانه التي تكسر بعضها.

– إفترسوه... إفترسوا الكلب العجوز...

لطعت الأفواه دماءها... بسرعة... وأخذ السور الحي، يتحرك نحوه... شرع يتوسل بهم واحداً واحداً. ولا أحد يستجيب لتوسلاته. فالحلقة يراها بأم عينية... تضيق وتضيق... وتمتص هواء المسافة الكائنة... بينه وبينها... وماهي إلاّ ثوانٍ... وتنقضّ عليه... هذه الأنياب الدموية الكثيرة... تطرحه أرضاً. ثم... ثم... تقضم حتى عظامه...

لم يستطيع تصديق مايجرى أمامه... وتراه عيناه القلقتان إنه أمر يفوق كل خيال... إنه توقع يتجاوز كل واقع... كيف يمكن أن تنقلب الأمور الى هذا الحد المريع... وتبلغ هذا القدر الهائل من البشاعة.

حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر قد لايعدو أكثر من عملية تخويف أو إرهاب غير عملي، يمارسه الكلب الأسود الضخم عقاباً له... لكي يحتفظ من خلاله

بسطوته عليهم جميعاً... ولكن يحفظ بينهم مكانته السامية التي حققها لنفسه، عبر صراع طويل مع كل متحديه... وقتل ونهش كل من ينافسه عليها... أو يفكر أن ينافسه ذات يوم... أو... يستهزيء به بدعابات سمجة... تقلل من أهميته... وقدراته... وإنه في النهاية، سيعفو عنه... إذ يعتبر الأمر كله هفوة... أو خطأ... وقع فيه بعفوية ودون تعمد... بل... بل... أن سيده هو من أوقعه... فيه...

عند هذا الحد من التفكير، الذي منحه قدراً ما من الشجاعة. رفع الكلب العجوز رأسه المدلاة... وإنتزع عينيه المزروعين في الأرض، نصف المغمضتين... وفتحهما... فهاله ما رأى... ويدور... كل شجاعته وأوهامه التي شحن بها نفسه. لا... إن مايراه من تصميم في العيون الجاحظة المحمرّة... ومايسمعه من صرير الأسنان المصطكة. لايمكن أن يكون هزلاً... ولا حتى عقاباً تاديبياً خفيفاً... مثلما كان يرجو ويأمل. فتلاشت شجاعته التي إستجمعها... الأمر جاد لاسبيل الى الشك فيه... ولكنه ظل متشبثا بأهداب الحياة... ففي محاولة يائسة أخرى لإنقاذ نفسه من الموت المحقق المحدق به من كل جانب... والزاحف نحوه... بقسوة... قال:

– هو... هو من يجب أن يدفع الثمن...

قالها متعلقاً بخيوط حياة واهية... تفرُّ من مسامات جلده بعد مقارنة سريعة... أجراها... بين طرفي معادلة تراءت له... يشكل سيده أحد الطرفين... وهو الآخر...

– سيدي... هو الذي كذب عليّ...

أصرّ الكلب العجوز، وأضاف... مستجمعاً كل مهارته وحذقه في أغرائهم:

– هو... هو أكثر لحماً... ويكفينا... كلنا...

ووجّه عينين متسولتين الى الكلب الأسود الضخم. الذي هرّ، فتوقفت الحلقة عن الحركة... فداخله إطمئنان هش... وإستعاد بعض شجاعته.

– وأنا... أنا... بنفسي أقودكم اليه... الآن...

فكّر الكلب الأسود هنيهة... كان الكلب العجوز خلالها في غاية القلق والإضطراب... يتقلب فوق نيران الشكوك والآمال. وحين هرّ الكلب الأسود.

– ليكن!

تنفس الكلب العجوز الصعداء. ولم يصدق أن تواتيه هذه الفرصة النادرة... للنجاة... بهذه السرعة:

– ولكن تذكر أيها الكلب العجوز... انها فرصتك الأخيرة... أن كذبت علينا ثانية. أو خدعتنا مرة أخرى فنحن وبالرغم من تقرن جلدك. وتعظم لحمك آكلوك. لامحالة .

– كلوني قطّعوني... إفترسوني... إفعلوا بي كل ما تشاءون. وإنطلق يعدو.

صرخ بهم... يحثُّهم على الجرى، إذ راهم يجرون أجسادهم الهزيلة المتعبة... بصعوبة بالغة:

– أسرعوا... أسرعوا... قبلما تعود سيدتي.

وأضاف هامساً، مخاطباً نفسه... انها سيدة طيبة جداً. ويحزّ في نفسي أن اراها... تتألم...

وسقطت من عينه دمعة... داستها أقدام الكلاب الراكضة خلفه. بلامبالاة. وجد الباب، لايزال نصف مفتوح، كما تركه. فأيقن أن سيدته لم تعد، بعد. إلتفت نحوهم:

– بهدوء... أدخلوا... بهدوء.

هرّ الكلب الأسود الجائع على الدوام.

– أنت من تدخل... وانت من تهجم. وإن تلكأت هجمنا عليك.

تمنى الكلب العجوز... من كل أعماقه، أن يجد سيده، نائماً... فذلك من شأنه أن يسهل مهمة الإنقضاض عليه... إذ يجنبّه مواجهته... وإلتقاء عينيه بعينيه ورؤية جوعه وحزنه اللذان يطفران منهما.

داخله فرح خفى إذ وجده ممدداً... بيد أن فرحه سرعان ماتلاشى... إذ عرف أنه غير نائم... كان مستلقياً على ظهره. يعصر بطنه عصراً... ثم... لم يلبث أن إنقلب على جانبه الأيسر. وأدخل جمع أصابعه في حلقة دفعة واحدة. وشرح يمصّها بنهمٍ غريب.

إستغرب الكلب العجوز حال سيده وإستنكرها. إذ ظن إنه يأكل أصابعه،

وخشى أن ينتهي به الأمر الى أكل كل أعضاء جسمه عضواً عضواً... مما يثير غضب الكلب الأسود الشرس، ويتهمه مرة أخرى... بالكذب والخداع. حين يدخل هو وصحبه ولا يجدون ما يأكلون. وآنذاك سيكون وحده، الضحية والفريسة المرتقبة. فانتابه قلق شديد. وأخذ يدور حول سيده... متلصصاً... يبحث عن موضع ملائم... للإنقضاض عليه، قبلما ينهي نفسه بنفسه ولكن سيده فاجأه، بإخراج يده من فيه... سليمة:

– عُدتَ؟ عُدتَ خائباً مثلما خرجت؟ آخ... آخ... بطني...

أخذ يتلوّى... ويتقلب فوق فراشه، لايقرّ له قرار...

– كفّ عن التوسل اليّ بعينيك الملئتين بالجوع... أنا الآخر. جائع مثلك... بل أشد منك جوعاً... آخ... بطني... آخ.

نبح الكلب العجوز... نباحاً ضعيفاً منقطعاً... ياسيدي... قد بات الأمر خطيراً... خطيراً جداً... تجاوز حدود الإحساس بالجوع... تحملّ آلامه وأوجاعه... فأنت ياسيدي قد كذبت عليّ حين قلت أن الزمان قد بات زماننا... وأنا بدوري... لشدة ايماني بك وبصدقك... كذبت عليهم... أنا أسامحك وأغفر لك... كل شيء. ولكن هم... هم... لايسامحونني ولا يغفرون لي أي شيء... آه... آه...

إمتلأت عينا الكلب العجوز... بالدموع... إذ تذكر أيامه الأولى معه... أيام كان جرواً صغيراً... ضعيفاً... بلاحول ولا قوة... فإلتقطه هذا الرجل الطيب الممدد أمامه... من الطين اللزج... حيث ألقاه فيه صبي شرير... بعد طول ضرب وتعذيب... وهو يوشك أن يختنق... فأنقذه... وفتح له بواب بيته. وأسبغ عليه مع سيدة البيت كل ألوان الرعاية والحب... وظل كذلك حالهما معه طيلة سنوات العِشرة العديدة... حتى زحف الجوع... و...

– ما جدوى مكوثك هنا، يا ولدي. رح أبحث لك عن عظمه تأكلها... تقيك هذا الموت البطيء المتربص بنا جميعاً

دنا منه أكثر... وراح يتمسّح به... برقّةٍ فاتقة ويتشمّمُهُ بعمقٍ وعن قرب... كمن يستغفر شخصاً عزيزاً عليه، يجد نفسه مرغماً على الإساءة اليه بينما كان سيده يدفعه ويبعده عنه بلا قوة... وهو ينصحه:

– إذا كنت تأمل أن تعود سيدتك بشيء. فتأكد إنها لن تعود بما يزيد عن

حاجتنا... بل... بل لن تعود حتى بما يكفى حاجتنا صدقني... ومن الخير لك أن لاتعتمد علينا بعد... اليوم.

دمعت عينا الكلب العجوز مرة أخرى، إذ تذكر مايتوجب عليه أن يفعل بسيده. وما يقابل به هذه الطيبة وهذا الحنان، اللذين يمتليء بهما كل كيانه. عبر تلك الكف المعروقة الرقيقة، التي تربت على رأسه... فإلتصق به أكثر. ولو إستطاع الأنهال عليه تقبيلاً... وأخذه بالاحضان... مثلما كان هو يفعل به، أيام زمان... فلعن الزمن الأسود الذي ساق سيده الى هذه الحال... وساقه هو الى الكلب الأسود القاسي. الذي يفرض عليهما. بلا رحمة، فراقاً أبدياً... وبهذا الشكل المأساوي البشع... دون أن يملك له رفضاً... ولا حتى تغييراً.

هرّ الكلب الأسود الشرس... وتناهى إليه ناضحاً بالغضب.

– أوَتتلذّذ بتعذيبنا أيها الكلب العجوز... أسرع... أسرع ماذا تنتظر إهجمْ عليه... قبلما نهجم عليك.

حينذاك. وجد الكلب العجوز نفسه، ملقًى في عجز تام، فلم يجد بدأ من أن يتململ في مكانه... محاولا ً الإبتعاد عن سيده... منكّس الرأس... دافناً عينيه في الأرض... بحثاً عن موقع مناسب لشن هجومه المرتقب على سيدّه، الذي كان لايزال يربت بيده الهزيله على رقبته... ويداعب شعره الأشعث الخشن...

ولم يكد الكلب العجوز... يبتعد عن سيده خطوة... حتى سمعه ينادي عليه... بصوت حنون... معتذراً:

– تعال... تعال... من يدري... قد تعود سيدتك بما يكفينا جميعاً... فإصبر... فإصبر... وتحمل جوعك لحين رجوعها...

تمهّل الكلب العجوز. بعض الشيء، وإرتخى في مكانه... مما جعل الكلب الأسود الشرس الخالي من الرحمة. يزعق به... بحدة وتهور:

– حذار أيها الكلب العجوز، حذار. لاتصدقه... إنها كذبة أخرى من أكاذيبه. فقد عرف سيدك طريق الكذب وإستمرأه ولن يتوقف... ولا يتراجع عنه...

جمد الكلب العجوز، في مكانه... عاجزاً عن إتخاذ قراره.

– تذكر ايها الكلب العجوز... وعدك...

إختضّ الكلب العجوز. وأخذ يرتعد خائفاً. وفي الوقت الذي. داهمت سيده نوبة ألم جديدة. وشرع يتلوى منقلباً على جانبه الآخر... إبتعد عنه زاحفاً... وقف على مبعدة منه... دون أن يجرؤ على الإلتفات نحوه:

– هيا... هيا... أيها الكلب العجوز...

وإذ ذاك التفت نحوه... وحين رآه... قد أدار ظهره له ولم يعد بوسعه أن يراه... إستجمع شجاعته وكل حرصه على الحياة وإنقضّ عليه بسرعة خاطفة. أطبق على رقبة سيده الرقيقة الهزيله... بكل ما أوتي من قوة الجائع الذي يعثر على فريسة دسمة بعد طول عذاب ومعاناة. غرز فيها أسنان فكيه القويين... حتى كادا يلتقيان، عبر العنق النحيل وعظامه الرخوة الفارغة. صرخ سيده صرخة مكتومة. ورفس بظع رفسات ضعيفة، بيد أنّ الكلب العجوز كان قد سدّ أذنيه... وأغمض عينيه فلم يسمع صرخة سيدّه... ولم يرّ رفساته... غير إنه شعر بأن حلقة يمتليء بالدم... وفريسته تخمد في مكانها. بلا حراك، إذ ذاك أدرك بأن الأمر قد إنتهى. وأن الفراق الأبدى مع سيده قد حلّ... ومع هذا : لم يجرؤ أن يفتح عينيه، ويتطلع نحوه. فظل مغمض العينين...

وكقذائف خاطفة متتالية، إنطلقت الكلاب الجائعة، المتربصة كلها... تهجم على سيده وتنهشه... ظل الكلب العجوز قابضاً بأسنانه على خناق سيده، لايتركه ولا يفتح عينيه... وغير قادر على مشاركة جماعته في نهش لحم سيدّه. ولكن إذ فاحت رائحة الدم المسفوح واللحم الممزق، وإمتلأت بها خياشيمه... إستجابت لها أحشاؤه الداخلية، مُستَفزة بقوة وعنف، فإقتطع مضغة صغيرة وهو مغمض العينين مقراً الإكتفاء بها. ولكن جوعاً عميقاً كالذي يعاني منه منذ أكثر من أسبوع... أنىّ لمضغة واحدة أن تسدّه. بسرعة خارقة أبعد عن ذهنه صورة سيدّه التي تشعره بالإثم والخيانة، وراح يضرب بشدقيه المفتوحين وأنيابه الحادة، هنا وهناك، يقتطع قطعاً من اللحم، كيفما إتفق. وسرعان ما إستطاب طعم اللحم وإستعذبه، ملتذذاً به كثيراً. فاندفع يفترسه بشراسة ويلقية في جوفه، حتى دون أن يمضغه، حاله حال اقرانه... سوى إنه ظل مغمض العينين.

وإذ أتت الكلاب النهمه الجائعة على اللحم كله، لحم سيدّه وصديقه ومنقذه،

خرجت متثاقلة، تجر نفسها جراً. وتلتقط أنفاسها بصعوبة، دون أن تمسح شفاهها من آثار الدم. بقي الكلب العجوز وحده، ممدداً، أمام العظام المفتتة، المنزوع منها اللحم والجلد، بمهارة فائقة. والمغطاة بطبقة من الدم المنحثر. دون أن يراها فقد ظل، وبعد كل الذي جرى مثلما كان قبله مغمض العينين.

وإذ تناهى الى سمعه صرير الباب الخشبي، مصحوباً بوقع أقدام خافت، عرف أن سيدته قد عادت فصعق تماماً، وهمّ أن يطلق ساقيه للريح، ولكن إحساساً بالخجل والعار، إحتواه، وشعر بنفسه عاجزاً كلياً، لايقوى على أية حركة... كأنّ شللاً مفاجئاً شاملاً، أصاب كل أعضاء جسمه دفعة واحدة... أعاد المحاولة مرة... أو مرتين... قبلما يسمع صرير الباب ثانية وهو يُغلق... ووقع الأقدام الخافت... يتوضح... وبذل كل ما يستطيع. ولم يقدر أن يتجاوز... عتبة باب الغرفة... إلاّ زحفاً... بيديه... وبعض صدره. تساءل برعب... آآ... آهو... الموت؟... هو... المو...ت... إذن...

وكلما إقترب منه وقع أقدام سيدته... إزداد إحساسه بالعجز وإقتراب الموت منه... وإزدادت دقات قلبه وتسارعت. وراحت أنفاسه... تتلاحق... وإذ رأته سيدته على تلك الحال، هالها أمره، وأسرعت نحوه بقلق شديد:

– آه... كلبي... كلبي العجوز العزيز... صديقنا الوحيد... ماذا جرى لك، هل قضى عليك الجوع... لا لاتمت فقد عثرت لك على بعض العظام...

والقت عظمة... أمامه... ولكن الكلب العجوز... لم يحرك ساكناً... ولم ينتبه لسيدته وهي تقلبه ظهراً على بطن وبطناً على ظهر... كما لم يسمعها وهي تنتحب بحرقة... ولم يرى دموعها التي راحت تسيح من عينيها الغائرتين بغزارة...

بعقوبة ١٩٩٣

غيوم بلا... مطر!

تونس حورية بيضاء بضفائر خضراء تجدلها كل صباح ومساء. منطلقة من أعماق البحر الأبيض أجمل من حوريات كل البحار وأنظر. فتغسل الأرض وتعبق بشذاها. يتهافت عليها عشاق الروح والجسد. يتنافس من أجلها طلاب الجمال والمتعة. يرتوي منها عطاش العلم والمعرفة. تخترق جسدها الناسك طرقات مرشوشات برحيق الورد... مظللة بظلال أغصان الزيتون الوارفة. مزدانة بزهور الفلّ والياسمين... منضودة فوق أطباق من قش... منسوجة بألوان قوس قزح... وهي تتوج هامات صبية صغار... وصبيات صغيرات... بخدود موردة... وعيون متلهفة... وأصوات مزقزقة كالعصافير... لاتتجاوز السنوات التي يحملونها فوق أجسادهم الغضة... سنوات الورود التي يعرضونها أمام السائحين والزائرين بشوق ومحبة، إلا قليلاً.

هكذا كانت المدينة ترتسم... أو ترسم نفسها في مخيلتي... التي هدّتها متاعب السفر والخمر والسهر.

– أهي زيارتك الأولى...؟

سألني السائق ممزقاً شرنقة الصمت والتأملات التي نسجتها حول نفسي.

– أجل.

أجبت مضطراً بإقتصاب حريصاً على سلامة الشرنقة والعودة اليها بأسرع وقت. بيد أنه لم يدعني... وإذ واصل:

– تونس عروسة شقراء.

وكور أطراف أنامله... وقبل رؤوسها بحرارة...

وجدتني أخرج من الشرنقة طوعاً... أو رغماً عني... وأنا أتطلع... عبر زجاج السيارة الى كل ما حولي... بفضول طفل وتشوقه الى كل جديد.

– بل بيضاء... أو خضراء... أو بيضاء وخضراء... كل شيء فيها أبيض وأخضر.

– وأزرق إذ تزور البحر. وأحمر أيضاً إذ يحتضنك الماء... كل الألوان التي خلقها اللّه تجدها هنا.

سأل بعد صمت قصير:

– سياحة؟

– تقريباً و... وثمة معرض للوحاتي... يقام اليوم.

زفر:

– آه... باهي، باهي.

أسرعت أقول

– لامحمد... إسمي... محمد... الـ

وقبلما أنطق الأسم الثاني، صعقني بضحكة. بل قهقهة مجلجلة صاخبة إختضّ لها جسده البدين. حتى كاد المقود يفلت من بين يديه.

قلت باستياء:

– ليس في إسمي مايثير الضحك.

وفجأة فقد الرجل كل مرحه، وتلبسته حالة غريبة من الإرتباك والإضطراب.

– عفوك سيدي!

أهذا معقول؟ أبداً والله لقد... أضحكني سوء الفهم الذي حصل.

– سوء الفهم؟

– باهي... ياسيدي الكريم يعني جميل... جميل.

– أهي كذلك؟

وأطلقتُ أنا الأخر ضحكة عالية... إذن لك الحق يا أخي.

– ما الإسم الكريم؟

– السعيد... السعيد... بن مصطفى.

- باهي... إسمك... باهي جداً... أيها الأخ العزيز...

وأنطلقنا كلانا في آن واحد في قهقهة عارمة، أعادت إليه مرحه وحيويته... تمزقت الصورة التي تشكلت، في ذهني، والتي رسمتها المدينة بنفسها بفرشاة سحرية غير مرئية، وبألوان جذابة، متناسقة، منسجمة حد الأعجاز والإستحالة. أول ما توقف السائق أمام الفندق، الذي أُختير لإقامتي... وشابت بياضها المشع دكنة، إنه بناء غريب... قاس... يستقبل الضيف بعدوانية لامبرر لها إطلاقاً، بأحجاره الكلسية الضخمة التي أصفرّ لونها بفعل الأتربة وبصمات الزمن... وغدت مثل وجه مجدور مصاب بالسل، مكومة بعضها فوق البعض بلا تناسق ولا إنسجام، كقلعة من القلاع الرومانية التي توحي بالفظاظة، حتى أن السائق وقف مشدوهاً وقال:

- هذا نزل الملك الذي أبحث عنه.

وأضاف منتكساً:

- لماذا هذا بالذات؟ فثمة نزل في المدينة خير من هذا بكثير.

قلت بخيبة أمل:

- لأن مضيفي تاجر. تاجر لوحات وتحفيات... وأنتيكات... و... و...و

تناولت حقيبة ملابسي الصغيرة ودلفت.

لطمتني رائحة الحجر مليئة بحرارة تشوبها رطوبة زنخة، قلت لصاحب الفندق بوجه متجهم وبلا أية تحية:

- أنا محمد... محمد... محمد الجبل.

لم يبد الرجل الإهتمام الذي كنت أتوقعه، أو آمله، إكتفى بأن رفع إلي وجهاً أسمر، خالياً من أي تعبير. نطق ببرود:

- تشرفنا... هل من خدمة؟

وإبتدأت خيبتي الأولى، أو بالأحرى الثانية، فالأولى كانت الفندق نفسه، قلت أنا الآخر ببرود، وبوجهي المتجهم الذي زاد تجهماً:

- يفترض أن تكون ثمة غرفة محجوزة بإسمي.

قلت ذلك وفي أعماقي تعتمل رغبة قوية أن يقول آسف ليس ثمة حجز بهذا الأسم. فأحمل حقيبتي وأغادر النزل الحجري. ولا ألتقي بوجه محدثي الأملس الخالي من كل تعبير ولكن على الضد، أبدى الرجل إهتماماً غير عادي له إذ راح يبحث في سجلاته.

- لحظ، لحظة، ياسيدي!

ولم يطل به البحث إذ أعلن بسرعة وحماس!

- المعذرة ياسيدي، إذن فأتت محمد الرسام الذي ننتظرك، لقد تأخرت يا...

- الطائرة... الگمارك... الإجرا - آ...ت.

كنت مرهقاً أتثاءب. لا أقوى على ربط كلمة بأخرى، ولا إطباق شفتي. فتتساقط الكلمات، كمجموعة أحجار، رخوة منفصلة بعضها عن البعض.

رفع سماعة الهاتف بيد، وأشار بالأخرى بأدب جم، الى صالة دائرية مضاءة بلون حليبي، تغطي جدرانها ستائر بيضاء. مسدلة، تزينها ورود بنفسجية صغيرة، تفترش الأرضية سجادة حمراء فاقعة، وأرائك وثيرة، ومقاعد، وموائد عديدة بيضاء.

- تفضل أستاذ، تفضل، استرح ريثما أعلمهم بوصولك.

كان جسمي عود لبلاب طري، لين، زاده العرق المتصبب من سائر مساماته طراوة وليونة، غير قادر على الوقوف ثانية أخرى دون إسناد، فإرتميت بنصفي الأعلى على المكتب الذي يقف خلفه، وصداع شديد يكاد يفلق رأسي.

- لو سمحت ياسيد...(أمسكت بيده أمنعه من المكالمة التي ينوي إجرائها وأصيب على وجهه الذي إستحال فجأة الى علامة إستفهام) أنا... أنا... شديد التعب تسدي إلى فضلاً... لو أرشدتني الى غرفتي.

- كيفاش... ياسيد؟ لابد أن ترتاح قليلاً... تشرب شاي تونس الأخضر... و...

- أشكرك جداً، أنا كما ترى خرقة مبلولة، لا أقوى على الوقوف أريد أن أنام وأعدك أن أشرب الشاي الأخضر والأحمر... والأبيض وأي لون تختاره فيما بعد...

تغير وجهه: كأن فرشاة خفية شرعت تضرب فوقه ضربات فنان بدائي:

- غير معقول. هل هذا معقول؟

أخذ ضجري يتصاعد، وهو يغلي فوق نيران تعبي التي يلقمها نفاذ صبري المزيد من الحطب اليابس، تساءلت بغضب:

- عن أي شيء تتسائل يا أخ؟

أجاب الأخ بنبرة غير أخوية تماماً:

- أنا لا أتسائل. أنا مندهش، والدهشة تصعقني... وأنا...

- كن أنت ماتشاء أن تكون، أعطني مفتاح غرفتي، أو أنتقل حالاً الى فندق آخر.

تناولت حقيبتي باليمنى وبسطت كفي اليسرى أمامه. بإنتظار المفتاح. إلتقط مفتاحاً تأمله هنيهة قبلما يناولني إياه قائلاً:

- تفضل غرفة رقم "١٣".

وكأن مئة عقرب لسعتني دفعة واحدة صرخت:

- لا. رقم (١٣) لا. أعطني أي رقم آخر.

أذهله زعيقي، لفترة ظل جامداً، فاغر الفم، فم ككهف مهجور يردد صدى، راح يخاطب نفسه همساً:

- شرقي... شرقي آخر... يؤمن بخرافة الأرقام!!

- أجل شرقي وشرقي حتى النخاع.

وإستدرت على أعقابي بغضب شديد، قفز من فوق مكتبه، لحق بي قبلما أبلغ الباب الخارجي.

- أرجوك أستاذ لم أقصد إغاضتك. تعال، تعال. إختر أية غرفة تريد.

وأضاف وهو يسحبني:

- ياه... مرجل ، مرجل ، يغلي.

أهملت ماقال .

الغرف مملوءة بحرارة دبقة، ممزوجة برائحة التراب، وهي تعوم في فضاء منبهات السيارات وأصوات محركاتها وفراملها، أسرعت الى إغلاق النوافذ

العريضة المفتوحة على الشارع.أجّلت فكرة الإستحمام أو بالأحرى أجّلتها الى مابعد النوم، ألقيت بنفسي فوق السرير بكامل ملابسي، أملاً في إقتناص هنيهة نوم، تعيد إليّ بعض توازني الجسمي والنفسي. فأغمضت عيني شعرت بألم حاد... كأني أغمضها على قذى، والصداع الرهيب مايزال يجول في رأسي، غولاً بأقدام من رصاص. لا، لا، مازال النوم مطمحاً بعيد المنال، إن لم يكن مستحيلاً، تناولت من حقيبتي قرصين مهدئين... للصداع... آه ماكان ينبغي أن أعبّ كل ذلك الكم الهائل من الخمر، ولكن المضيفة، بشرتها البرونزية، وقامتها المياسة، وقصة شعرها الولدية، كانت في منتهى الجاذبية، أني لم أردّها. أو حتى أتباطأ في التلويح لها ومناداتها أول ماتشرق من غرفة الخدمة. حاملة صينيتها الفضية وفوقها الكؤوس المضيئة نتشعشع... هكذا أنا... قوي... صلب... صلد... جبل... أستطيع أن أقاوم رغبتي الملتهبة الى الشراب نهاراً كاملاً، ولكن ما أن تندى شفتي بقطرة واحدة حتى تذوب كل مقاومتي... وتنهار كل دفاعاتي ومتاريسي في الأقداح التي تترى.

- أرسمني، لم أجب -(كنت أشرب، أشربها)... أم... أم... لست حلوة؟

قلت:

- بل حلوة... حلوة الى حد أخشى الإحتفاظ بك.

- ومن قال إني سأسمح لك بالإحتفاظ بي. إرسمني، إرسمني ثم إنسني مثلما أنساك أول ماتهبط من الطائرة.

- لا أنسى الوجوه التي أرسمها.

- كل الوجوه؟

تساءلت بمرح شهي.

- كل الوجوه لأني أصلاً لا أرسم إلا الوجوه التي تدخل مزاجي.

إنتعش اللون، رفعت كأسي:

- بصحة الوجه الملائكي الذي إقتحم مزاجي وتربع فوق عرشه ملكاً دون منافس.

- أثمّة مكان لأخرى فوق عرش فنان؟

آخ رأسي آه ياروح الخمر الخفية، إذا لم يكن لك إسم تُعرفي به، فلنسمّك الشيطان كما يقول شكسبير. أو نسمّك... إمرأة كما أقول أنا.

– لي أصدقاء رسامون كثار... ويسعدني أن أتعرف على رسام جديد من العراق.

– تتعدد الهوايات غالباً، وأحياناً تتناقض.

– ماذا تعني؟

كانت الخمرة قد تمكنت مني والشيطان قد شهر لسانه ضدي. قطبت الجميلة فتلبّد الوجه الصافي بقطع من الغيوم... روح الخمرة تصرخ بي، لاتراجع الى الأمام.

– ثمة من يجمع الطوابع... وثمة من...

– الأصدقاء؟

– ذكية. تتلقفها وهي طائرة. هكذا نقول نحن في العراق عن الذكاء المفرط.

– أنا اليوم رائقة المزاج. ولن أسمح بتعكيره بسبب ملاحظة خشنة من فنان خشن.

ثم أضافت بخشونة بددت كل رقتها:

– هل تريد المزيد؟

– إذا لم تكن خشونتي قد جرحت مشاعرك الرقيقة.

رفعت القدح الفارغ، ووضعت مكانه آخر ملآن:

– لادخل لمشاعري في عملي.

لم تكن صادقة، فقد تغيرت كثيراً مما دفعني الى المزيد من الشراب والى تقريع نفسي ولومها، وصبّ اللعنات على الشيطان الذي يسبح في القدح ويخترقني مع كل جرعة... ثم مايلبث أن ينتصب في جوفي، يجوفني ويلعب بي على هواه آه رأسي!!

يبدو أن نوماً قلقاً مضطرباً مزروعاً بالكوابيس والإختناقات والعطش. قد نساني لفترة ما... إذ أفقت مذعوراً على بعضهم بهم بإقتلاع الباب، فصرخت

بحدة:

– على مهلك... على مهلك... أنا قادم.

– أي نوم غريب هذا يا أستاذ؟ قد كنا أن نحطم الباب. وأنت ولا كأنك موجود... أين اللوحات؟

... أجبت بصوت نائم: في... في... المطار.

ثم شرعت أتثائب بضجر.

– في المطار؟

كادت عيناه تقفزان من محجريهما وهو يتساءل:

– لماذا في المطار؟ ماذا تفعل لوحاتك في المطار؟

– معتقلة!!

بضيق شديد صرخ:

– سي محمد أرجوك، ليس الوقت وقت مزاح، أخبرني... قل لي...

– حسبوني سارق لوحات... أو حسبوها أكياس مخدرات، المهم أخذوها كلها... وأعطوني هذه الوريقة.

ولم أكد أُخرج الورقة المدعوكة من جيب سروالي، حتى خطفها.

– وتركتهم يأخذونها بهذه البساطة؟ آه... ما أنت يا أخي... ما أنت؟ هيا... هيا معي الى المطار. آه يا إلهي... المعرض يفتح في الثامنة والساعة الآن تجاوزت السادسة... هيا يا سي محمد... أسرع... أرجوك.

– أما تراني بأي حال أنا؟ أذهب وحدك... وإذ تعود تجدني جاهزاً.

– أرجو ذلك. بل لابد.

وأضاف وهو يطوي درجات السلم نازلاً:

– يا سي محمد... لاتنسى أن تكتب كلمة لدليل المعرض، ضروري. ضروري جداً.

شقشقة المياه المتساقطة على جلدي العاري... وحدها التي شرعت تملأ كياني... وتبعث فيّ الإنتعاش... الذي شرع يعيدني الى الوجود رويداً... رويداً.

في صالة الفندق تناولت طعاماً خفيفاً، أشعلت سيجارة. وطلبت قهوة قبلما أنغمر في التفكير بالكلمة التي يتوجب عليّ أن أكتبها.

كتبت بضع كلمات لم تعجبني. كتبت أخريات... وأخريات... مزقت الورقة... مزقت ورقة أخرى... وثالثة ورابعة... لا... لا أستطيع... لا أستطيع البتة.

لماذا ينبغي للرسام أن يكون حاضراً خارج عالم الضلال والألوان والخطوط في الوقت الذي لايشترط في الكاتب أن يكون موجوداً خارج الكلمة والحرف؟ ما الضرورة التي توجب على الرسام أن ينظّر مايرسم؟ شعرت بعجزي يستفحل ويشلّ كل قدرة عندي على تقطير أفكاري وسلسلتها في سياق الكلمات والحروف وأنظمتها الخاصة. ومنعها عن الإندلاق على هذا النحو الفوضوي. بعضها يزاحم بعضاً... بعضها يسابق بعضاً بلا ضوابط ولا ترتيب أو تنسيق. آه... إن سيل الأفكار المتيسر سيجرفني بعيداً... ويتلف لي وقتاً عزيزاً...

أنا بأمسّ الحاجة إليه قبلما يعود السيد الرابح بن موسى متعهد معرض الفنانين المغمورين

– القهوة يا سي محمد.

رفعت عيني فإذا بصاحب الفندق يحمل اليّ القهوة بنفسه، شملني خجل شديد... آه... يالطيبة هذا الرجل وسماحته وسعة صدره... نهضت مرتبكاً، وقد طغى عليّ شعور بالحاجة الى أخذه بالأحضان وزرعه بقبل قلبية حارة... لعله يغفر لي سوء سلوكي ورعونتي. ولكنه منعني وهو يقول بطلاقة وطيبة:

– لا عليك ياسيدي... لاعليك... أنت ضيفنا... وعلى الرأس والعين مادمت بيننا.

أشعلت سيجارة أخرى وطلبت قهوة ثانية. وأنا أعصر ذهني وأعصابي وكل قواي أستحليها بضع كلمات. ولكن بلاجدوى. لماذا لا أترك المساحة المخصصة لي خالية... وأدع عيون المشاهد... أو لوحاتي من خلال عيون المشاهد تكتب... وتقول ماتشاء؟ تأملت الفكرة... راقت لي كثيراً... وبدت لي إنقاذاً معقولاً من المأزق الذي يقودني السيد الرابح إليه، ولكن ياترى هل تروق له، هو الآخر؟ ما شأني به؟ المهم أنها تروق لي وكفى.

وبدلاً من أن أرتخي بعد ما توصلت الى هذا القرار النهائي... وجدتني أكتب على الورقة بتوتر شديد: ثمة رسامون يرسمون ويكتبون... وآخرون يرسمون وحسب. وأنا بلا فخر ولا تواضع... أنتمي الى الفئة الثانية. وبعدها تراجعت الى الوراء. وشعور بالرضى والإرتياح أيضاً... يسري في كياني ورحت أنفث دخان سيجارتي... وأرنو الى هنا وهناك كسجين تحرر بقوة من جدران سجنه. وألقى نفسه في عالم كل ما فيه جديد، فأخذ بتأمله بعيني طفل مدهوش... يا إلهي.

إخترقتني وعدة كهربائية هزت أوصالي، لا، لايمكن أن تكون هذه المخلوقة الخارقة امرأة... فالإله الرحيم الرؤوف. خالق البشر والطير والنبات والجماد، الذي يوزع سائر عطاياه ومنحه بالقسطاس المستقيم أعدل من أن يسبّب كل هذا الجمال والجاذبية لامرأة واحدة، إلا إذا كان قد خلقها لنفسه، مثلما فعل خالق بجماليون... آه... لا... لا... اللهم غفرانك... لاشك أن خللاً قد أصاب عقلي وجعلني أجدّف. وأي حمار ذلك الذي يمكن أن يحتفظ بعقله سليماً إزاء جمال صاعق، مزلزل... كهذا الجمال المصبوب كله في كيان... يدبُّ على رجلين مثل سائر البشر... وماهو من البشر ولا ...

– القهوة أستاذ! قهوتك... ياسيدي! القهوة... يا... أستاذ القهوة...

– ضعها يا أخي... ضعها وكفاك زعيقاً في إذني... ألا تراني مشغولاً... مسحوراً؟

وكنت فعلاً مشغولاً ومسحوراً بها... ممتلئاً بسحرها الجذاب حتى الشعرة... كل كياني مشدود إليها... كل جسمي يدور حيث تدور بين المقاعد والموائد... كما يدور بغل الناعور حول الوتد المربوط به.

– أين أصنعها ياسيدي؟

يا للحاجة هذا الصبي!!

– صنعها فوق رأسي ياتاج رأسي، ضعها فوق عيني يا أعز من عيني، أين توضع القهوة عادة ياحبيبي... أليس فوق المنضدة؟ أم لك إجتهاد آخر؟

– الأوراق ياسيدي... أوراقك تغطي المنضدة كلها.

قالها وهو يكاد (يخرب) من الضحك... لملمت الأوراق كلها... دعكتها... رميتها في سلة المهملات.

– أيكفي هذا الفضاء لوضع فنجان صغير... أم أجمع كل المناضد في منضدة واحدة؟

قهقهه النادل... ناولته ورقة نقدية. قال دون أن يكف عن ضحكة الصافي البريء:

– يعيشك... ياسيدي... يعيشك إن شاء اللّه ياربي.

هبط الجمال بقربي... نزل من عليائه وجلس خلفي على مبعدة أمتار مني حسب، آه ما أشقى من يرنو الى هذا الجمال ولا يستطيع أن يعانقه ويلثمه، ماأتعس من يحيا الحياة صحراء ويقع فجأة على هذا النبع الصافي الرقراق... ويعجز أن يرتوي منه... أو حتى يبلل شفتيه من رضابه! هذا الشعر المنسدل فوق نهار ربيع... هو ضالتي التي أنشدها... هاتان الشفتان الرقيقتان... هذا الأنف الدقيق... هذان الخدان الموردان، هذه العنق الرخامية الطويلة... هذا الصدر المنتصب بكبرياء... آه... رقبتي... ألا لعنة إلهة الجمال على أوجاع الرقبة... هذا الوجه... بكل تفاصيله ودقائقه. أعرفه بهذه الغلالة من الرصانة التي يتراءى خلفها... لقد إلتقيت به... يوماً ما... حتماً... ولكن... أين... ومتى... ربما... ربما أول ما ولدت... أو... أو... قبلما أخلق... وفي كل مكان كلما أغمضت عيني أسمو الى الجمال... الجمال المثال... الذي أعشقه منذ بدأت أعشق الجمال... أأكون خلقته من مادة الحلم والتوق الدائم... الى البساطة المعجزة...

وشاء اللّه لحكمة في ذاته العليا أن ينفخ فيه الحياة ويجسّده لي... ولكن أهي لي؟

أخذت ترتشف قدح العصير مباشرة بعدما أزاحت جانباً القصبة المجوفة، ثم تمسح شفتيها إثر كل رشفة بمنديل ورقي رقيق شفاف برقة وشفافية كأنها تخشى أن يجرح المنديل الناعم شفتيها الأكثر نعومة وليونة... بكل تأكيد... ثم تطوية بعناية فائقة بضع طويات وتثنية، عفواً تضعه بهدوء حالم في منفضة السجائر الوردية، كأنها تمارس طقساً دينياً، دون أن تحفل بي أو بمن حولها،

مما حملني إضافة الى الأوجاع التي بدأت تسري في رقبتي أضعافاً مضاعفة أن أغير مقعدي، وأنتقل الي مقعد آخر وأجلس متعبداً قبالتها... تماماً وجهاً لوجه... وأول ماتلامست عيوننا، إبتسمتُ... بيد أنها أهملت إبتسامتي... غضّت بصرها... أطبقت أهدابها الطويلة... غطت النبعين الصافيين ياخسارة...! رفعت القدح الى شفتيها ثانية، ولكنها لم تشرب... لم ترتشف حتى هذه المرة شرعت تعضُّ أطرافه بأسنانها اللؤلئية... لماذا؟ ماذا تقصد؟ لا أدري... بل... بل أنها تريد أن تحطمني... إذ ترمز الى تحطيمه "تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لايعاد له السبك" ولو شاء اللّه أن يعيد سبكي أرجوته أن يسبكني قدحاً، وبالتحديد قدح عصير، رقيقاً، شفافاً يشعشع عبره عصير الليمون... إذ تسقط عليه أضواء فندق "الملك"، وتلثمه شفتان... أو تقضمه أسنان حليبية، تتربص به خلف شفاه وردية... مصبوغة بلون فؤادي المسفوح... حتى تحطمني و... تفترسني... و... وثم يعيد القادر القدير... سبكي مرة ثانية... القدح نفسه... و... دون ملل.

(موناليزا)

إهتف بصوت أخرس فتضعضع كل أوصالي... موناليزا القرن الحادي والعشرين، وكل القرون السوابق واللواحق. ترى كيف السبيل إليها؟ أتمنى من كل قلبي أن أكون ذلك الراهب المتهتك راسپوتين في سحره وجاذبية عيونه المغناطيسية التي لاتفلت منها أنثى.

(باهي... باهي)

أردد بنشوة عامرة وجذل حقيقي ، هذه المرّة لم تذهب نظراتي الطويلة المسددة نحوها... سدى... نقد تصدقت عليّ بنظرة... نظرة قصيرة جداً... لم يتعد عمرها ثانية واحدة لقاء عشرات بل مئات النظرات الطويلات المصوبات نحوها. ولكنها رغم ذلك كانت كافية أن تمنحني حياة وشجاعة فائقة، فأومأت إليها أن تنضم إليّ أو أطير الى عشها رفضت الحالتين. غير أني لم أقنط، لاسيما وقد لاحظت أن رجائي قد أحدث فيها تغيراً ما... إذ لم يعد وجودي ملغىً كما كان. فقد راحت تختلس إليّ النظر بين آونة وأخرى. حريصة أن تبدو نظراتها عفوية. ولا تدعها تتقاطع مع نظراتي التي تحوم حولها، تحيط

بها من كل جانب... تلتصق بها... ولا تنزلق منها. فتحت حقيبتها البيضاء، أخرجت علبة سجارة، غرستها بين شفتيها الورديتين... يالسعادة هذه السيجارة التي ترضع رضابها، وتلامس شفتيها وتمص لسانها... آه... وقبلما تشعل عود الكبريت الذي هيأته، قفزت نحوها... ببسالة غريبة وعود ثقاب يتوهج بين أصبعي، رنت إليّ بعينين سوداويين، عميقتي الغور، إبتسمتُ... إنعكست إبتسامتي على شفتيها دعوة... أو هكذا طاب لي أن أفسر ابتسامتها الحييّة الخجول... وتصرفت على ضوء هذا التفسير، مستمداً منه شجاعة مضاعفة... فسحبت المقعد الذي يقابلها... إنطلقت قبلما أجروء على الجلوس، مثل محموم يهذي:

- سيدتي... أميرتي... لست صائد فتيات... ولا طالب لذات عابرات... ولكن جمالك الإلهي بهرني... هزّ كياني... زلزلني... فإسمحي لي أن أجلس قبالتك، أتعبد في محراب جمالك... وأتأملك وأرنو إليك حسب، لعلي أستعيد بعض توازني... ولك عليّ ألف يمين وقسم ووعداً أن أنصرف لحال سبيلي حين تأمرين محمولا ً فوق نعش خيبتي... دافعاً نفسي هناك... بلا آمال ولا طموحات و... و... بلا حراك.

كنت شلالاً متدفقاً... بطلاقة وسلاسة، إستغربت أنا نفسي من نفسي... وماكدت ألمح ظلال ابتسامة رضى... أو مشروع إبتسامة... قبلما ينساب الى أذني... الصوت العندليبي العذب "لابأس" كنت قد القيت بجسدي الذي نخره القلق على الكرسي وجاءت حركتي من الطيش واللهفة بحيث جعلت المائدة تختض، وقدح العصير يهتز... فأسرعت أمسك به، ولم تسح منه سوى قطرات... إختطفت المناديل الورقية من المنفضة وهي معبقة برائحتها وعطرها... ومزدانة بلون شفتيها ورحت أمسحها... ثم وبدلاً من أرميها في سلة المهملات، دسستها بتأنٍ وتروٍّ شديدين في جيب قميصي الأيسر فوق القلب تماماً... وأنا أقول بسعادة غامرة:

- عفواً مولا تي... يبدو أني لست وحدي الذي فقد توازنه.

أوسعت إبتسامتها وعادت تنفث الدخان من شفتيها القرمزيتين. حلقات متداخلة حيناً... منفرجة حيناً آخر... وسحائب شفافة... أحياناً أخرى. ومثل

بوذي مترع بالإيمان، وجد نفسه فجأة في حضرة إلهه "بوذا" الذي يحلم به ليل نهار... فصعقته الرؤية... حتى كاد يموت أو مات فعلاً من الشوق والوجد. فقدت النطق وإستحال لساني الذي كان قبل هنيهة ذرباً مهذاراً، لايعرف التوقف خرقة بلافائدة ولا نفع... إكتفيت أن أحدق فيها. أبحر في هذا الجمال الذي لم أرله مثيلاً... لافي الوجوه التي أتأملها ولا في اللوحات التي أرسمها... أو أبحلق فيها ساعات وساعات.

"سأرسمها"

لم يكن لساني نطق... وإنما صرخة مدوّية إنطلقت من داخلي. أجل سأرسمها. فالرسم لايحتاج الى كلام، ينتظم في لوحات وحروف صامتة بل يزدري بالكلام... فهو نفسه اللغة التي مابعد اللغة... والـ ما قبل اللغة أيضاً. ستكون أجمل لوحاتي... اللوحة الأجمل... اللوحة الحلم... يرسم الفنان مئات اللوحات وفي ذهنه... لوحة واحدة... هي ضالته المنشودة... وإذ يحققها يصمت أو يموت... والموت والصمت كلاهما... للفنان الحقيقي... سواء... لكن الحال بالنسبة لي مختلفة إذ سيكون صمتاً" صاخباً... يقيم الدنيا ولا يعقدها... يطلق كل الألسنة وهي تتنافس وتتسابق في الكلام... وسيكون موتاً زاخراً بالحياة... الحياة الفن... تبثها فيها لوحتي الخالدة... اللوحة الأخيرة... التي هاهي خطوطها الهلامية الأولى تتشكل في مخيلتي "والظلال" والظلال الدقيقة التي تتخلل الأضوية التي يلقيها...

سقط الضوء على خدها الأيسر... فتتوضح... وتتوضح خلالها "الرصعة" التي تزين صفحة وجهها... فائقة الجمال والروعة... والألوان تتشكل في.

- أما لديك شيء تقوله؟
- ها... لاو... وأنت؟
- أنا ماذا؟
- ها...
- لا... لاشيء عو... عودي كما كنت... أرجوك استديري نحو مسقط الضوء، أرفعي ذقنك... قليلاً.

- ما هذا يا أستاذ؟ ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟ إسحب يدك.

دفعت يدي بقوة.

- أنا... أنا... أرسمك.

- ترسمني؟

- أجل أرسم موناليزا.

- ليزا؟ ومن ليزا هذه؟ فرنسية.

- ها؟

- عشيقتك؟

- هي... هي معبودتي هل معك مرآة؟

- مرآة؟ أنت ساحر؟؟

- تقريباً، سأجعلك ترين موناليزا، بكل مافيها من سحر وجمال.

ودفعها فضولها الى إخراج مرآة صغيرة من حقيبتها.

- خذ أرني معبودتك.

وضعت المرآة أمامها مباشرة.

- أنظري... تأملي جيداً. هذه معبودتي.

- ولكن هذه صورتي... أنا... أنا عفيفة.

هززت رأسي نفياً وأنا أردد:

- لا... لا... لست عفيفة.

- لست عفيفة؟ من أنت حتى تتهمني؟

أسرعت أنفي سوء الفهم الذي وقعت فيه بابتسامة عريضة:

- أنت موناليزا... معبودتي.

- أتعرفني أكثر مما أعرف نفسي؟

وإذ أومأتُ إيجاباً، إتسعت حدقتاها وتسإلت بإستنكار:

- من أنت بالضبط؟ من رجال شرطة الآداب؟ من تكون؟ حتى... حتى...

- دافنشي... ليوناردو دافنشي... أقصد... أنا... أنا.

قاطعتني:

- خواجة؟ لايبدو عليك للوهلة الأولى... أنك...

وأطلقت ضحكة نافرة كادت تشوه الصورة التي لما تكتمل. وراحت تطرد سحاب الدخان من حولها.

توسلت:

- دعيها أرجوك إنها تضفي عليك هالة شبيهة بتلك التي تحيط بوجوه القديسات؟

- القديسات؟

وأطلقت ضحكة أخرى توأم ضحكتها الأولى ولكن بقدر أكبر من الإنتماء الى المجون و... البلادة، وإستمرت:

- أنت رجل غريب حقاً... مَن من هؤلاء القديسات؟ وهل ثمة قديسات في هذا الزمن؟

أغلقت كلتا عيني حرصاً على الصورة... خشيت أن تتسلل خارجهما... قبلما تجف ألوانها... ويكتمل معمارها، كنت أراها بوضوح... شفتاها مطبقتان، تنفرجان قليلاً لتقذفا غيوماً وسحائب متتالية، وموسيقى كلماتها تخترق أذني:

- هية... نمت؟ هل أنت نائم؟ لماذا لاتتكلم؟

- حين أرسم لا أتكلم.

- ترسم؟ هل تستهزيء بي؟ أين الأصباغ؟ أين الأوراق؟ هل تراني غبيّة الى هذه الحد؟

لم أنطق، اللمسات الأخيرة بالنسبة إنيّ أشقّ مراحل الرسم، إنها تستفزني وتهلكني معاً.

"مخبول... يا بنت ياعفيفة، وقعت على رجل مخبول"

سمعتها بوضوح تخاطب نفسها... وأضافت:

"يالتعاسة حظك... يا خائبة!"

وهي تطفيء سيجارتها... تسحق بقاياها... وأنا أذوب في أناملها المنتهية... أو المبتدئة بتويجات حمر.

- حمداً للّه... إذ وجدتك.

قالها السيد الرابح، الذي عاد لاهثاً، سحب كرسياً وإرتمى فوقه بلا أدنى كلمة ولا حتى إستئذان من موناليزا... وهو يهدر:

- رفضوا تسليمي اللوحات. يصرون على حضورك... هيا معي... هيا...

- ليس الآن... ليس الآن.

- بعد الآن يفوت الأوان... وإقرأ على معرضك السلام.

- الى الجحيم... وألف... ألف سلام... أو... لعنة... لايهمني.

- والقاعة التي حجزتها ؟ والأموال التي صرفتها ؟ والدعوات التي...

- أخي... لاتلهيني... أرجوك... ألا تراني أرسم...؟

- ترسم؟ ترسم... ماذا...؟

- اللوحة التي أحلم بها... منذ عشقت أناملي الفرشاة... أرسم البراءة والنقاء.

- البراءة والنقاء؟

وأطلق ضحكة بدت صدى لضحكة عفيفة.

- تاالله ما أنت إلا مجنون، أو لابد أن أكون أنا المجنون لكي أرتبط معك بمشاريع وعهود وإلتزامات... هيا... معي... هيا... إنهض...

- مستحيل لو أطبقت على السماء أو مادت بي الأرض. لن أتحرك من مكاني قبلما أنهي لوحتي... لوحة العمر...

- سأمهلك نصف ساعة (قالها مستسلماً، وكان لابد أن يستسلم إزاء صرامتي) نصف ساعة فقط... وإن لم تأت معي بعدها... أحملك كافة الخسائر يا محمد... يا جبل.

- موافق... أرسل لنا قهوتين... وأنت خارج.

خرجت موناليزا من صمتها الذي لاذت به، منكمشة على نفسها، مثل أرنبة

مذعورة طيلة مكوث السيد الرابح.

- محمد؟ جبل؟ ألم تقل أن إسمك... ناردو... باردو... أو دفنشي... منشي... أو لاأدري ماذا؟ "يخيبك"، لقد حسبتك خواجة... هاهاها...

خصلتان في البشر عموماً، تروعانني، وفي الأنثى بشكل خاص ترعبانني، وتسيرانني، الدمامة والبلادة. وهذه الأنثى التي إجتازت الأولى بتفوق، توشك أن تخذلني في الثانية. فأصلي بصمت وأتوسل وأبتهل الى القادر القدير... يا إلهي لاتفجعني بها، مثلما فجعتني بالمضيفة فأنا لا أقوى على تحمل فجيعة أخرى، إن هذا القدر من الجمال الربّاني حرام أن لايُتوج بقدر مماثل من الذكاء والمعرفة. وهرباً من نفسي وشكوكي، ومخاوفي... أهرب إليها... ألوذبها... أدخل إليها.

- طالبة؟

- لا

- موظفة؟

- لا

- حدثيني عن نفسك، من تونس؟

- لا، ولن أقول من أين.

- ليكن، كيف تعيشين؟

- أعمل

- أجر يومي؟

- يومي... ليلي.

- ها؟

- وفي الساعة، حسب الطلب والرغبة.

- لا أفهم

- حقاً؟

- حقاً. صدقني... لاأفهم.

لم أكن اسأل... أو بالأحرى لم أكن معنياً بالأسئلة ولا بأجوبتها، بقدر ماكنت أتسائل وأتمعن في تقاسيم وجهها، ملهياً نفسي عن وساوس نفسي وظنونها التي باتت تتشكل وأفلشها وأنا أصغي بكل جوارحي ملتذاً بموسيقى صوتها المنسابة كشقشقة مياه عذبة في صحراء جافة، حارقة، لانسمة، لاقطرة، لاظل.

كأن وجودي قد استحال عبئاً... شرهة، شبقة، نهمة، قتلهم هذا المخلوق المذاب في كيان من الرقة والعذوبة.

شرعت اللوحة تتنفس... تتحرك تحت أناملي الجامدة. حية نابضة، بالربيع والخضرة.

- لا شكراً... لا أشرب القهوة.
- إذن بيرة ما رأيك بزجاجة بيرة.
- منكر؟

وإتسعت حدقتا عينها، وإختضت، حتى النادل تراجع.

- أعوذ بالله... أنا... لا أتعاطى المنكر لو ذبحتني.
- لا... المسألة لاتستوجب ذلك.

قلت مبتسماً، مستغرباً وأشرت الى الصبي بالإنصراف، تساءلت بنفاذ صبري:

- هل نظل هنا؟

تساءلت كالغائب عن الوعي:

- ماذا تقصدين؟ لا أفهم.
- لاتفهم؟ غبي أنت أم طفل؟

وإبتلعت الإهانة بصمت، كان لابد أن أبتلعها حرصاً على الصورة لئلا تسقط في الوحل الذي بات يتربص بها... ولا سيما وقد أخذت تهتز... وألوانها الطرية تختلط.

- عفوك، ذهني مشغول بعض الشيء، هلا أوضحتي لي؟

تأففت وأجابت:

- هل أُعجبكَ أم لا؟

تساءلت بهمس لم أر له أي موجب... كدت أصرخ:

- تعجبيني؟ تعجبيني حسب؟ أنت آية من الجمال... أنت...

قاطعتني:

- حرستي، هل تريدني؟
- نعم؟ تساءلت
- مرة أخرى لاتفهم؟ أرجوك لاتضيع وقتي أكثر مما فعلت... إذا كنت تريدني قم بنا الى داري وإلاّ فأتركني ودعني أكسب عيشي... يا أخي.

زعقت مصعوقاً تماماً:

- أأ... أتعنين... إنك...

وتلاشت اللغة... إندثرت من هول المفاجأة، من فضاعة اليقين التي شلّت لساني، وراحت يداي تتكلمان بمزيد من الصخب والضوضاء والإضطراب.

- عليك نور... ها قد فهمت... وعرفت... ولكن إهدأ... إهدأ ولا تلفت إلينا الإنظار.

وإذا لم أستطع أن أهدأ... توسلَت!

- استر عليَّ يا أخي... أرجوك.

آه ياربي أنجدني! لاتتخلّ عني! شعرت بدوار عاتٍ يلفني كالأعصار وبحرارة تنورية تحتويني فتدفق العرق بارد اًمن كل مسامات جلدي...

وسَرَت في أوصالي رعدة... والصورة، الصورة الحلم... التي رسمتها من أعصابي من توقي الى الجمال، الى البراءة والنقاء... أخذت تتمزق، وألوانها الروحية تتشقق مثل أصباغ رديئة على وجه قوادة عجوز تتصابى... وفي رأسي تدوي لكماتها... طفل... غبي... مخبول... وكل تلك الصفات والنعوت الأخرى التي كانت تصفعني بها، كيف لم أدركها... كيف سكتُّ عليها ولم أصفعها... أصفح وجه هذه الرمية الخالية من الحياة والحياء... و... وتلميحاتها

العديدة الخفية والعلنية الى مهنتها... كيف غابت عني... لاشك إني غبي... وطفل وأستحق كل شتائمها. آه... ولكن كيف؟ كيف يمكن أن أصدق بأن هذا الوجه الملائكي وجه مو... مو... آه... لا... لا لن أهين دافنشي العظيم بعد...ولا قديسته الملاك... آه... لابد أن ثمة خطأ ما... في مكان ما... في الشمس... في البراءة... في الزهرة... في في العهر... في الظلام... في الهواء... في الكون... في... في... في.

– خلصني... ذلك الرجل هناك يدعوني...

وسأل صوتها المبحوح في إذني... رصاصاً مصهوراً...

بإحساس مدمى بالإهانة ورغبة عارمة في ردها... أفرغت كل ما في حبيبي من نقود أمامها، وتهيأت في الوقت نفسه للرد على أي فعل طائش قد تندم عليه... ثأراً لكرامتها المداسة بهذا الشكل الفظ... ولكنها لدهشتي البالغة... لملمت الأوراق الورقية والقطع المعدنية بمنتهى البساطة... ودفنتها في حقيبتها... وغادرتني... بلا كلمة.

إنتابني ألم شديد في مبدئي وشعرت بثقل غير مرئي يضغط على صدري وأصابع أخطبوطية تمسك بخناقي... وتحبس أنفاسي... تحاملت على نفسي بصعوبة شديد وتوجهت نحو الحمام، محاولاً التغلب على الدوار الذي شملني ومقاومة التيار العنيف المحصور في داخلي، إلا إني وقبلما أبلغه... خارت قواي، وفقدت السيطرة على نفسي والقدرة على التوازن... ورحت أتقيأ... فتدفق سائل أصفر مخلوط بمواد من بقايا الدخان والقهوة... وإمتلأ حلقي مرارة مقززه ... وطعم بغيض... ورائحة كريهة. أخرجت من جيب صدري المناديل الورقية أمسح شفتي،... ولكن مرأى بقع الدم عليها، ورائحتها الباعثة على الغثيان... أثارت فيَّ سيلاً من القيء... حتى خيل إليّ أن أحشائي تطفو فوقه... أحاط بي مدير المعرض وصاحب الفندق وآخرون... وملء سمعي تردد أصوات:

– الطبيب... الإسعاف.

وتناهى إليّ صوت النادل الصغير مبلولاً... بالدموع:

– ياربي ماذا جرى له... قبل قليل كان مثل الديك.

من خلال فتحات السور البشري المضروب حولي... لمحتها وهي تتأبط ذراع رجل أنيق... حسن الهندام، ويخرجان معاً.

بجهد قريب من المعجزة إستطعت أن أرتب بضع كلمات صامتة:

– إإ إحجزوا... لي... على... أول... طا...ئر...ة... الى ... الى...

تونس١٩٩٣

بضع صرخات من...
"صراخ الصمت الأخرس"

قد تكون "صراخ الصمت الأخرس" من أكثر كتاباتي - إن لم تكن أكثرها فعلاً - إنفلاتا من الوعي المبرمج، الموجَّة والموجِّه، وتمرداً على ضوابطه ومستلزماته وقيوده الظاهرة والخفية، ولكنها بالرغم من ذلك، وربما بسبب ذلك بالضبط قد جاءت من أشدها تعبيراً عن الوعي وقدرة على إخفاء هذا التعبير بين سطورها، بل وكلماتها. تحت أطنان من اللاقصد واللاخوف.

ففيها وفي كتابات أخرى، لايزال معظمها غير منشور ولا معروض، تركت القلم يجري على سجيته وفي عفويته اللامؤطره واللامحدودة... وتركت نفسي بكل ما تزخر به، من عواطف وإحاسيس، وخزين معرفي، ومعايشة... عملية للواقع، ومعاناة يوميه، تجري خلفه، يقودها... الى حيث يشاء هو، لا إلى حيث تشاء هي. الى عوالم ودنى، لا أعرف عنها قبل إكتشافها والدخول فيها شيئاً، في رحلة، مؤلمة. موجعة، ولكن في الوقت نفسه ممتعة ولذيذة، وذات طعم خاص، لاتزال نكهتها في الحلق على الرغم من قصرها، قياساً الى كتابات أخرى، إبتلع زمن الفراغ منهما! أو مايشبه الفراغ الأولي، منها سنوات وسنوات، وبدون قطرة واحدة من المبالغة. بينما لم تستغرق هي، "الرحلة" سوى ثلاثة أيام. ولكن بمعدل ست أو سبع، وأحياناً عشر ساعات، من اللهاث والجري والنشاط المحموم المتواصل، وغير المنقطع إلاّ بضرورات أقوى من طاقة الجسم على التحمل والإستمرار... وكانت الحصيلة عشرات الصفحات من الحجم الكبير، مئة صفحة "فولسكاب" مكتوبة حتى حواشها. وعشرات الألوف من الكلمات (ستة وثلاثين ألف كلمة) و... شخصان فقط بلا إسم ولا تاريخ ولا ماض، ولا مستقبل، ولا ... ولا ... وربما بكل أولئك وأكثر!

أطلقت عليهما صفتين رقميتين هما الأول والثاني، يثرثران يعانيان، يتعذبان يمتلآن، مئات الأفكار والحالات والتناقضات، يتخاصمان، يتصالحان، يتحابان، يتباغضان، يتعانقان، يتفارقان... دون أن يعرف أي منهما، لأيّ من تلك الحالات سبباً... ودون أن يخطط لها أو حتى يريد الوصول إليها. بينما يعرف المشاهد والقاريء، أكثر من سبب... لكل أو معظم مايجري لهما، ولكن دون أن يعرف هو الآخر، تحديده بالضبط... أو يخمّن، حتى مجرد تخمين، مسار الأحداث بينهما، ويعرف، أو حتى يتكهّن بما سيحدث أو تؤول إليه الأحداث، بصورة جازمة...

أهي رواية، رواية حوارية، أهي قصة، أهي مجموعة... قصص، متداخلة، متشابكة، مع بعضها البعض، أهي مسرحية أهي...؟ أهي...؟ أهي...؟

لم أحفل. ومازلت غير حافل، كثيراً بالتسمية... ولكن لابد من الإعتراف، بأن شعوراً عميقاً، عارماً، بالزهو قد ملأني ممزوجاً براحة جسدية ونفسية كبرى وأنا أفرغ من كتابة آخر كلمة فيها. إلا أني وبالرغم من ذلك فقد ركنتها جانباً، فوق رف مخطوطات، أو بالأخرى وأدتها، مع شقيقات لها كثيرات، في مقبرة المخطوطات العمودية، التي ماتني تعلو... تعلو...

* في عام ١٩٨٤ - أي بعدما يقارب العشرين عاماً من رقادها، أطلعت، من جملة من أطلعت، الصديق الفنان عوني كرومي، وإذ تجاوز، بقدرة قادر، رعبه المشروع من حجمها وعدد صفحاتها، شرع يتصفحها بدقة وأناة، فتوجس قلبي الخيفة، إذ توقعت إنه وبما أعهد فيه من الصدق والصراحة واللامجاملة، سيعيدها اليّ، ضنيناً بوقت يهدره بلا طائل، وآسفاً في الآن نفسه، على ماأهدر صديقه محي، من الوقت والجهد في تسويد هذا الكم الهائل اللامعقول من الورق و... ياخسارة الورق، مع أن الورق كان حينذاك، مبذولاً، ولا يعاني حتى أية أزمة. ولكن على الضد من مخاوفي وتوقعاتي. وجدته قد إستغرق في قراءة پانتوميمية - إن صح التعبير، إذ كان لايكف أثناء القراءة، عن تحريك يديه، وملامح وجهه، وحركات رأسه وعينيه، توحي بأنه... بصدد تجسيد ما يقرأ من أفكار الى حركات وأفعال، وهو يواصل إلتهام صفحاتها إلتهاماً، ومالبث أن قرر إخراجها على مسرح الستين كرسياً.

وأعطى (أوامره!!) الى فناني فرقة مسرح اليوم، وفرقة المسرح الشعبي، بإستنساخها... وتقديمها للإجازة... و... و... طبعاً ليس بصفحاتها المئة، وإنما العشرين صفحة الأولى منها حسب. تاركاً، أو مؤجلاً الصفحات الأخر، الى فرصة أخرى، وربما الى فرص أخر.

فكانت مسرحية "صراخ الصمت الأخرس".

التي شاهدها الكثير. وكتب عنها وأشاد بها، العديد من الكتاب والفنانين والنقاد، داخل العراق وخارجه، والتي بلغ من تعلق عوني وشغفه بها، أن اعاد عرضها، بعد... بضعة شهورفي جمعية التشكيليين العراقين، وبعد بضعة أعوام. للمرة الثالثة، في عمان، عام ١٩٩١ - مفتتحاً بها. وبمسرحيتين أخريين، من إخراجه أيضاً، المسرح الشعبي الأردني... وللمرة الرابعة، وبعد خمسة عشر عاماً، أعاد عرضها في ألمانيا... بكادر جديد، ورؤية جديدة... وإخراج جديد، لم يكن في مستطاعي، ولن تكون، مشاهدتها... للاسف الشديد.

* فإليه...

الى ذلك المغامر الأبدي، المحلّق بأجنحة الكلمة الى ما وراء الكلمة. السائح دوماً في فضاءات الفعل والصورة، الباحث أبداً بمصباح ديوجين عن الخارق والمدهش. الرائي بعيون الجوهري وهج الذهب بين ظلمات التراب... الذي منح "صمتي الأخرس" صرخته المدوية ووهب كلماتي المخنوقة حياةً ضاجّة بالحياة...

الى الخلاق الأمهر عوني كرومي...

بضع صرخات أخر من صرخاتي المؤودات

الباحثات عن الحياة وعمّن يمنحهنّ الحياة

١- الغولة خرابكو...!!

عاد الأول بعد غيبة سنوات طوال، قضاها في الغربة والكدّ والمشقة، بحثاً عن السعادة والثروة، ولكنه عاد بدونهما، وبدون ذراعين أيضاً.

إحتفى به الثاني، الذي لم يغادر الوطن بالرغم من كل شيء، كما ينبغي للصديق الوفيّ أن يحتفي بصديقه الحق، غادر روتينية أيامه المقرفة، وخرج معه، للتنزة والتمشي على ضفة نهر ديالى كما إعتادا أن يفعلا كلمّا ضاقت بهما روحاهما وما أكثر ما كانتا تضيقان حتى تصبحا أضيق من خرم الإبرة، منذ أكثر من ربع قرن.

كان الأول حزيناً حتى النخاع، ليس لأنه قد عاد، "ويدٌ من أمام ويدٌ من خلفّ" كما يقول المثل العراقي، إذ أنه قد صار بلا يدين. وبلا يد واحدة أيضاً، ولكن بسبب فقده ذراعيه كلتيهما، وبلا مقابل، ولأسباب أخرى عديدة، لايعرفها بالضبط، فقد سدّ الحزن الثقيل، الذي لايفارقه، سبل الإهتداء إليها، كما يسدّ النفط الأسود الثخين المكشف مسامات الجلد والروحمعاً إذ يسيل من عروق المواطن ويشربه الأجنبي ويسمن به ويُثري.

أصاب الإخفاق كل المحاولا ت الجادة والهازلة، التي بذلها الثاني للترفيه عنه، وتخفيف وقع الكارثة على نفسه... بل فشل حتى في إخراجه من صمته الطويل الذي تقمط فيه، فقرر أن يستفزه بوقاحة:

- ما الذي دفعك الى السرقة هناك حيث، خارج الوطن

أجاب الأول بإقتضاب شديد:

- الجوع...

وعاد يتلّفع بصمته الثقيل، مما دفع الثاني الى الإستمرار في إستفزازه.

- ما كان ينبغي أن تجوع...

رماه الأول بنظرة شزراء، وشمخ بأنفه، إذ راح يرسل نظراته الى الأعلى، الى أشجار النخيل والبرتقال والليمون التي تحيط نهر ديالى، رافضاً بإباء... أن يوجه إليه كلمة... بعدما فضح نفسه بإعلانه عن مدى بلادته وغبائه.

إحترم الثاني حالة الأولى النفسية. فدخل هو الآخر الصمت. وأخذ يسير الى جانبه، بلا كلام، ولكنه لم يسر سوى بضع خطوات... حتى ضاق بصمته أو ضيق عليه الصمت الخنّاق، وشعر بأنه سيختنق إن لم يتكلم...

- ألا قل لي... يا صديقي العزيز...

إلتفت نحوه الأول، دون أن ينطق. ولكن ملامح وجهه أوحت له بأنه قد بات على إستعداد أن يحاوره، أو يستمع إليه، في الأقل...

- و... و... هناك، حيث كنت تعمل، هل يقطعون ذراعي كل من يسرق...؟

لم يخب توقعه، إذ أجاب الآخر سريعاً، وبنبرة طبيعية، لم تشبه أية شائبة من الامتعاض أو الإستياء، بل بدت له نبرة ودوداً جداً... وأن كانت تتخللها نغمة غير خفية من الأسى:

- بذلك... تقتضي شرائعهم...

أخذ الثاني يئن ويتوجع... آخ... آه... آخ..." تساءل الأول بإهتمام:

- ما بك... ماذا جرى لك فجأة؟

- فاض بي الألم... انني أتوجع... انني اتألم... بل أتمزق ألماً ووجعاً. من أجل أرامكو

- من أجل "خرابگو"؟ هذه الغولة التي بلا قلب ولا رحمة... ولا شفقة؟

إنفجر الأول، مصعوقاً وهو يصرخ به: هل أنت مجنون؟ بلا عقل...

تراجع الثاني، إزاء هذه الحدّة، وخشي أن يعقبها هجوم بالرأس...

- أنا... انا... أرثي لحالها... لاشك إنها الآن كائن. بلا يدين، بلا ذراعين بلا... قدمين، بلا ساقتين. بلا شفتين. بلا منخرين... بلا... بلا... بلا...

وسكت. منقطع الأنفاس، يمسح العرق المتصبب من سائر أنحاء جسمه... بالرغم من برودة الجو... وإمتلائه بالنسائم الربيعية. هزّ الأول رأسه بإستخفاف بالغ:

- أنت من ينبغي أن يُرثى لحاله. وأضاف بحكمة خبير، وخبرة حكيم ومجرّب: إن من تتحدث عنها يا هذا، مخلوق خرافي، بملايين الأيدي والأذرع والأرجل... والمخالب والأنياب والقواطع، تشرب، تعبّ... تأكل، تفترس تقضم حتى العظام، بلا تعب ولا كلل، ولا توقف ولا شبع كأنها جهنم نفسها، التي يقول عنها جلّ شأنه، ويوم نقول لجهنم، هل إمتلأت فتقول هل من مزيد... وهي...

قاطعة الثاني بنفاد صبر:

- مع هذا... مع هذا...!

ثار الأول وتمنى لو يملك كفين ليصفعه بهما... معاً... وصرخ:

- كيف... مع هذا...؟

أجاب الثاني موضحاً بقدر من التروّى واللإنفعال:

- إسمع، يا صديقي، أنت دفعت ذراعين، بكل ما فيهما من أوردة وشرايين وعظام ولحم وجلد وشعر ودم ثمناً لسرقة واحدة، لإسكات نباح جوع آنيّ، مؤقت ربما في داخلك... فما بالك بسرقات مخلوق خرافي كالذي تصف؟ كم سرقة يمكن أن يرتكب في اليوم الواحد؟ ها؟ كم؟ كم؟ أجبني لاتعنفني.

أجاب الآخر دون أن يخرج من (صَفنتهِ) كلياً:

- يستحيل تعدادها في اليوم الواحد.

صرخ الثاني آخ وهمَّ أن ينخرط في البكاء لولا أن الأول سارع ينقذه... وهو يقول...

- لو... لو... سألتني عن الثانية الواحدة، لربما إستطعت أن أعطيك أرقاماً تقريبية.

صاح الثاني بلهفة، وصبر نافذ:

- أعطني... أعطني وأنا أضرب الثانية في الستين وأصل الى الدقيقة. وأضرب الدقيقة في الستين وأبلغ الساعة وأضرب الساعة في ...

- هراء، ما الستون... وستين الستينات. عليك أن تضربها في الملايين، بل

البلايين... وربما، بلايين البلايين...

- سأضرب. سأضرب (وأسرع يخرج من جيب سترته، قلماً وأوراقاً وهو يقول في إضطراب وإستعجال) أضرب... أنا... قويّ فيّ الحساب" منذ... أيام الدراسة الإبتدائية... وأنت... تعرف ذلك... وتشهد بتفوقي الكبير...

- إنها... بعدد رمال الصحراء العربية. وصحاري الدنيا، زائداً عدد حصى الخليج العربي وخلجان العالم وبحاره وأنهاره، زائداً عدد الشعر الذي يكسو رؤوس سكان الكرة الأرضية وجلودهم وجلود حيواناتهم، زائداً عدد الحسرات والآهات والأكاذيب والخيانات... وهبات المطر. وأوراق الشجر. وقطرات البحر و...

- كفى... كفى... لقد صدّعت رأسي...

قاطعة الثاني متوجعاً ممسكا برأسه بين كلتا يديه... قهقه الأول ساخراً:

- تعبت؟ ولما... أبدأ...

- المهم، توصلت الى ما أريد... إسمعني... مع هذا العدد، غير القابل للعدّ من السرقات لابد أن تكون الآن قد غدت شيئاً بـ... بـ... بلاشيء - أي شيء... فأي كائن مهما كان خرافياً، أسطورياً، لابد أن ينتهي به الأمر الى الفناء والإندثار...

أجاب الأول... بدراية وعلم:

- إلاّ... السيدة المدللة... خرابكو...

بينما ثار الثاني، وقد فقد أعصابه تماماً: لماذا... لماذا؟ أي منطق هذا... هـ... هـ... هل ينبت لها مليون ذراع، كلما قطعوا لها ذراعاً واحدة؟

"عقّط" له الأول: إنهم لايقطعون لها إصبعاً واحدة... ولا يقلمّون لها ظفراً واحداً مع أن شروط النظافة توجب تقليم الأطفار كلما طالت عن حدّها... وشرعت تجرّح أو تخدّش...

بدأ الثاني يضرب الأرض بقدميه ويصرخ بهستريا:

- لماذا؟ لماذا لايفعلون... ما إمتيازها على الآخرين؟

همس الأول: إقترب مني... إقترب أكثر، أكثر أكثر، وإذ تلاش الهواء بينهما، أدخل الأول: فاه في أذن الثاني وعيناه نقطتا زئبق:

- اليد اليمنى. لاتقطع اليد اليسرى......

- لايمكن... مستحيل.

زعق الثاني مرة أخرى: لماذا؟ لماذا؟

حار الأول في أمر صديقه، الذي لايفهم. ولا يريد، أو يحاول، أن يفهم:

- لأنهما خارجتان، من جسم واحد...

- و... و... يداك، ذراعاك.

- خارجتان من جسم آخر. غريب عن الغولة، لايمت إليها بصلة ولا الى اقربائها، ولا حتى الى عبيدها وخدمها.

٢- فقدان الذاكرة!

كان الشارع الذي يسيران فيه، دون أن يعرف أي منهما أسمه، أو موقعه، ودون أن يهتما لذلك أدنى إهتمام، خالياً تماماً. لابشر ولا شجر أجرد كلياً، لاماء ولا ثمر.

كان الوقت ظهيرة، ظهيرة تموزية. شديدة القيظ. الشمس تطلق... سهاماً نارية، تنعكس على وجه الأسفلت، المجدور، المليء بحفر عديدة، مبثوثة هنا وهناك، فائضة بالمياه الآسنة، والوحول الدبقة. ترتد أشعة الشمس، إذ تسقط فوقها، أخرةً ملتهبة، تكاد تغطيهما وتخفيهما عن العيون، وهما يسيران ببطء وثوءدة وإتزان، غير مباليين إطلاقاً بالحر الذي يشويهما، ولا بالعرق السائل من كل مسامات جسميهما. مستمتعين، بشكل غريب وشاذ، بهذا المناخ الجهنمي، الذي لايطيقه حتى الحجر... فيهرب منه متدحرجاً الى أي ظل، وظل أي شيء...

– أنت يا صاحبي وصديقي الأوحد... مريض.

قال الأول دون أن ينظر في وجه صاحبه، ردّ الثاني دون أن يلتفت نحوه هو بثقة عالية بنفسه، تفوق ثقة الطيب العالم، بعلمه:

– أنا، والحمدلله الذي لايحمد على مكروه سواه، في أتمِّ الصحة والعافية. وتجنب بحذق ومهارة، حفرة مياه آسنه، كاد يسقط فيها، فيخسر إحدى ساقيه، ويغدو مثل صاحبه الذي فقد كلتا ذراعيه، في حادثة لاقرابة ولا تشابه بينهما.

إحتدَّ الأول. وكان منذ حلاً في هذه المدينة التي لايعرفان إسمها ولا موقعها على الخارطة، أو على الأرض، قد صار حاد المزاج، مشاكساً، كثير الغضب لأوهى الأسباب وأتفهها، إلا إنه، هذه المرة، سيطر على نفسه ومسك زمام أعصابه بقوة، ولم يدعه يفلت منه، بالسرعة التي إعتاد بها الإنفلات، سابقاً.

خاطب صديقه، تحت غطاء، من الهدوء والرقة والرصانة. وإن كان غطاءً واهياً، يمكن أن يتمزق في أية لحظة، أو يُخترق بسهولة ويسر. مع الشرارة الأولى من نيران غضبه، التي توشك أن تشتعل، دون إرادة منه، ولا حتى رغبته في إشتعالها. وإتلافها لتأكل اليابس، وإذ لاتشبع تزحف نحو الأخضر، وتلتهمه إلتهاماً، دون أن يتركه لما يجب من الزمن... كي تيبس. أو يجف حتى:

– لاتعارض ياصديقي. أنت مصاب بمرض خطير، يدعي... يدعي...

وأخذ يضرب رأسه بظهر صاحبه، وهو يردد مخاطباً نفسه...

– ماذا يدعي... يدعى ماذا... تذكر... يا هذا... تذكر... يا حمار... تذكر... آه. تذكرت... إسمه العلمي... أعني الأكاديمي... الإكلينكي... فقدان الذاكرة. بالضبط... فقدان الذاكرة...

إنتاب الثاني قلق مفاجيٌ... مشوب بفضول، ممزوج بمخاوف، إنبثقت من مكان ما في داخله:

–... ما... ما... و... فقدان... ما...ذا... ماذا...

– الذاكرة... فقدان... الذاكرة...

– و... وما هذا المرض... ما أعراضه.

غمر الأول فرح طاغٍ... نزل على نيران غضبه التي توشك أن تندلع، برداً وسلاماً إذ سمع هذا السؤال. الذي كان قد خطط له جواباً. لانظير له. توقف عن السير... سعل بضع سعلات، ألقى على صاحبه نظرة خاصة، تضفي عليه وعلى جوابه، كمية هائلة من الأستاذية والعلم والمعرفة...

– اعراض هذا المرض، ياسيدي، وتاج رأسي، يا محفوظ السلامة، هي... هي ما أنت فيه بالضبط.

وقبلما يدع فرصة لصاحبه، يطرح عليه سؤالاً آخر، لم يعد له جواباً، أو يتطلب جوابه غير الذي أعدّه في ذهنه، واصل كلامه بسرعة...

– لا يعيش معك شيء من ذكريات الماضي، ولا يزورك شيء من أحلام المستقبل أو آماله. واللحظة التي تحتويك، تنساها أول... ما تغادرك...

– انها لنعمه... ما أنا فيه نعمه كبرى...